ⓒ نور محمد البار، ١٤٣٧هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

البار، نور محمد
رحلة البحث عن معنى، / نور محمد البار جدة، ١٤٣٧هـ
.. ص، ١٧ × ٢٤ سم

ردمك: ٦-٩٩٧١-٠١-٦٠٣-٩٧٨

١- الثدي سرطان ٢- الأمراض النسائية أ. العنوان
ديوي ٩٩٢، ٦١٦ ١٤٣٧/١٣٦٧

رقم الإيداع: ١٤٣٧/١٣٦٧
ردمك: ٦-٩٩٧١-٠١-٦٠٣-٩٧٨

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى
١٤٣٧ هـ - ٢٠١٦م

رحلة البحث عن معنى

حكاية طبيبة
تصاب بالسرطان وهي حامل

تقديم

(نور).. لأهل البصائر!!

د. وليد فتيحي

لماذا يجب عليك أن تقرأ هذا الكتاب؟

لماذا يجب أن تقرأ قصة نور؟

لأن فيها كل ما تحتاجه من نور يضيء لك ما بقي من حياتك.

كل منا يأتي إلى الدنيا ليملأ فراغاً ينتظره.

كل إنسان خلق لتحقيق غاية..

ومن الناس من يختارهم الله ليتحقق (الإحياء) بموتهم.

ترى.. هل خطر ببال نور.. الطفلة أو الشابة..

أن الله كتب عليها أن يكون في قصة حياتها (إحياء) و(نور) لكل من حولها؟

بل أن يكون في قصتها عبرة لمن سيأتي من بعدها؟

ترى.. هل كانت نور في مقتبل عمرها تدرك أن قصة وفاتها ستكون هي الغرض من حياتها؟

وهل خطر ببالها أنها ستغادر الدنيا وهي في الثالثة والثلاثين من عمرها؟

حقاً لكل منا نصيب من اسمه..

إن كنت تبحث عن قبس من نور تجسد في قصة، فها هي لشابة طبيبة مسلمة حافظة لكتاب الله، فافتح قلبك لعلك تجد نوراً يستيقظ من داخلك، ويعيد نور الحياة فيك.

لماذا يجب عليك أن تقرأ قصة نور؟

لأن (نور) ستكشف لك حقيقتك التي غابت عنك طوال سنين، في عالم مجنون، الكل فيه يركض في سباق محموم وراء المكاسب

والماديات واتباع الشهوات كالحيوانات..

عالم تحولت فيه الوسائل لغايات وضاعت الدوافع التي هي أولى بالتحري من الغايات..

(نور) جعلتني أسأل نفسي إن كنت حقاً كما أدعي أنني أعمل لوجه الله حباً له، فلماذا إذن لم يصبح أحب الأعمال إليَّ، قيام الليل مناجاة وتقرباً لمن أدعي حبه سبحانه؟ وهل هناك للمحب غاية أسمى من التقرب والوصال؟

إذا أردت أن تكشف نفسك لنفسك وتعري ذاتك لذاتك، قبل أن تُكشف وتُعرَّى في يوم حساب قريب على رؤوس الخلائق، فإن (نور) ستعينك إن شاء الله على ذلك.

هنيئاً لكِ يا نور، فوالله لا أراكِ إلا كمن هو في قاعة اختبار، وكلٌ منهكٌ مشغولٌ في اختباره وبقي له الكثير، وكأن من بين من يؤدون الاختبار من أحسن وأجاد في النصف الأول، إحساناً وإجادة جعلا الممتحِن يسحب منه الاختبار، ويقول له: هذا يكفيك.. لقد نجحت بعلامة كاملة وسأكفيك عناء إكمال الاختبار.

لعل الله اطلع على ثلاثة عقود من عمرك يا نور، فكفاكِ عناء ما بقي من ابتلاءات واختبارات.

قد يحزن عليكِ من لا يعلم من الدنيا إلا ظواهرها، ويراكِ قد غادرتِ الدنيا وأنت في زهرة شبابكِ، ولا ينظر إلا لما يدركه بحواسه المادية، لكن أهل البصائر لهم نظر آخر، فالله قد اصطفاك يا نور لتكوني نوراً لبصائرهم.

تمهيد

في هذا الكتاب أشاطر قارئي جزءاً من روحي خلال تجربة فريدة.. تجربة إصابتي بالسرطان وأنا حامل.. حيث يصبح الموت قريباً جداً والخيارات شائكة.. وحيث يصبح الإيمان بخالق عظيم مدبر وقادر هو طوق النجاة.. وضعته في مقالات قصيرة وبأسلوب قصصي سلس لتكون قراءته ميسرة لأي أحد..

أرجو أن يجعله الله بلسماً ونوراً لكل قلب متألم يمرّ بمحنة أياً كانت.. ومن منا لم يمرّ قطّ بمحنة!!

من تمام الصحة.. إلى السرطان

طبيبة أنا.. وأم لطفل ذي ثلاث سنوات.. وحامل في الشهر الثالث..

وقبل أسابيع.. كان يوم ميلادي الثلاثين..

بدأت القصة بكتلة صغيرة.. لاحظتها مع بداية حملي ولم أعرها بالاً في البداية.. ثم قررت أن أسأل عنها طبيبة الولادة فأحالتني لجراحة الثدي وهي ضاحكة تقول: «بالنظر لعمرك ولكونك حاملاً.. أنا متفائلة.. لكن.. فقط.. لنتأكد».

وعند جراحة الثدي لم تقل الطبيبة كلمة واحدة على عادة الجراحين.. كل ما قالته: «لنعمل أشعة صوتية».

كانت المخاوف تتزايد كل يوم وأنا أستعيذ بالله من الشيطان.. لكن المخاوف ذات يوم أخذت منحىً آخر.. تحولت من مجرد مخاوف إلى خيالات أليمة..

الرحيل عن زوجي وابني.. من سأعهد للعناية بهما؟.. كنت أفكر مَنْ من بين صديقاتي يمكن أن أزوجها لزوجي.. لتعتني بابني بعد رحيلي.. من هذه التي أثق بها هذه الثقة؟.. كان تفكيراً مؤلماً صاحبه الكثير من الدموع.. ولم أستطع أن أشارك به أحداً لأنه بدا لي سخيفاً وغير منطقي.. ولكنني عشت ذلك الجو لفترة..

ذهبت لموعد الأشعة في يوم من أيام العمل وفي نفس المستشفى الذي أعمل به.. ذهبت وتلقيت الخبر من طبيبة الأشعة: «هذه ليست مجرد حويصلة. هناك كتلة في أحد جوانب الحويصلة.. أنا لا أستطيع التكهن بما يمكن أن تكون؟ يجب أن نأخذ عيّنة ويجب أن نتعجّل.. تعالي بعد غد لأخذ العيّنة».

في تلك اللحظة التي نزل عليَّ فيها الخبر ثقيلاً ثقل الجبل.. دق البيجر يخبرني أن حالةً في الطوارئ تنتظرني لأقيمها..

حبست دمعي.. وكبتت مخاوفي.. وأسرعت للطوارئ لمعاينة الحالة..

كان المريض يتكلم.. وأنا.. في عالم آخر..

لم أكن أفكر تحديداً في ما قالته الطبيبة.. كنت فقط أتحسس ثقل الهم في قلبي

وأتمتم: «إن شاءالله.. خير»..

سريعاً جاء موعد العينة.. ومن يومها.. ولأني أعمل في نفس المستشفى كنت أبحث عن النتيجة في نظام المعلومات كل عدة ساعات.. مع العلم أن موعدي مع جراحة الثدي لمناقشة النتيجة بعد ٥ أيام.. كان ينتابني إحساس غريب وأنا أترقب النتيجة..

كنت أشعر بعمق أن هذا سرطان.. شكله في الأشعة.. إحساسي به.. الرسائل التي كانت تأتيني من غير مبرر.. كأن أفتح التويتر بعد انقطاع أشهر، فلا أجد إلا رسائل الدكتورة سامية العمودي لمريضة سرطان الثدي.. وكيف واجهت السرطان.. وكيف أخبرت عنه أولادها..

لكني كنت أكذّب نفسي.. وأحاول أن ألزم التفاؤل وأذكر قول الإمام علي «إني لأحسن الظن في الله، فإن كان خيراً فبفضل الله وإن كان غير ذلك فقد عشت بالتفاؤل زمناً» ثم جاء يوم الجمعة.. يوم موعدي مع طبيبة الجراحة.. بعد مرور الصباح على المرضى.. والذي استمتعت به فعلاً مع حالات جديدة ومميّزة..

ذهبت لغرفة المناوبة.. لأنظر للنتيجة.. و لوهلة قلت: «يارب.. تخرج».. ورأيتها..

من فرط الخوف.. تشابكت الأسطر أمامي.. لم أعرف من أين أبدأ قراءة التقرير.. قرأت في المنتصف.. لم أفهم شيئاً.. فطرت بعيني للأسفل.. ورأيت ما فاق توقعي

«Invasive ductal carcinoma Stage 3/3»

سرطان متعدي.. من الدرجة الثالثة (أسوأ درجة وأسرعها انتشاراً)

تزغللت الكلمات أمام عيني.. وسمعت صوتاً.. تبين لي أنه صوتي..

كنت أقول بصوت عالٍ «شكراً يارب.. الحمد لله.. الحمد لله»..

بعد دقائق من الترديد بلا تفكير.. وأنفاسي تتسارع.. وقلبي ينبض بجنون.. بدأت عيناي تذرفان.. لماذا؟ لست أعرف.. فيم كنت أفكر؟ لا أعرف..

كل ما أتذكره من تلك اللحظة هو صوتي يردد: «الحمد لله».. ممتزجة بشهقات بكاءٍ عالية.. ونفسي المتسارع..

بدأت أفكر.. هذه نهاية زمن «نور» الصحيحة السليمة القوية.. هذه بداية حقبة أخرى.. لا أعرف كم ستستمر ولا متى ستنتهي..

اتصلت بزوجي.. فلما رد قلت بهدوء: «كيف حالك حبيبي؟»... «النتيجة طلعت».. «أحتاجك».. لم أقل أكثر.. ولم يطلب هو مني أن أقول أكثر.. قال لي :«سآتي الآن» وأغلق الخط.. وأشكر له ذلك.. فلم أكن لأقدر أن أنطق بالتشخيص..

كانت الساعة عندها ١٢ ظهراً.. ومن فضل الله ومن غير المعتاد أن تكون غرفة المناوبة فارغةً في مثل هذا الوقت.. وقد استغللتها أحسن استغلال. استمررت في الحمد.. ثم تذكرت الدعاء: «اللهم أجرني في مصيبتي واخلفني خيراً منها».. وعدت للبكاء والحمد..

أذكر تلك اللحظة الآن وأشكر الله عليها بعمق.. أشكره أن أنطق لساني بالحمد بغير إحساس مني.. فأنا لم أفعل.. بل هو الذي فعل.. أشكره أن أعطاني هذه الفرصة لأتلقى الخبر وحيدة.. في غرفة مغلقة.. حيث أستطيع البكاء و«النحيب» بغير أن يراني أحد.. ولو تأخرت النتيجة ساعة واحدة لاضطررت أن أتلقاها في عيادة الطبيبة.. في وجود الطبيبة أمامي تقول لي «أي كلام».. لتخفيف الموقف..

جاء زوجي.. فتلقيته من باب المستشفى.. ابتسمت وقلت «الحمدلله» وسرنا بضع خطوات.. وبعد ثوانٍ سمع نحيباً واحتضنني.. وبقيت أنتحب وأنتحب..

من تلك اللحظة وحتى جاء الموعد.. أفرغت خزانة دموعي.. فذهبت للموعد وليس لدي المزيد من الدموع..

دخلت الطبيبة مبتسمة: «كيفك؟».. «كيف الحمل؟».. «كيف الغثيان؟».. «كيف كان استئصال العينة؟».. مقدمات تلطيفية..

«حسناً.. لدينا الآن جواب واضح».. فبادرت بالرد: «أعرف.. قرأت التقرير».

فأجابت مندهشة: «تعرفين؟» فرددت مبتسمة: «وفرت عليك عملية نقل الخبر السيئ» (breaking the bad news)

فقالت: «أوه كم أرحتني.. كنت قلقة ولم أدر كيف سأخبرك!».. «حسناً يجب أن نتحرك بسرعة.. لدينا الآن هدف عاجل أن نقضي على هذا الورم.. ولدينا الكثير من القرارات لنعمل عليها».

وبدأت بإخباري كل التفاصيل والعلاجات وكل الخيارات المريرة.. التي سقطت عليَّ كقذائف متتالية..

قنابل من الأخبار

بعد أن أخبرتني الطبيبة بأن التشخيص هو سرطان الثدي.. والذي كنت بفضل الله قد عرفته قبل ساعة.. فأفرغت دموعي واستجمعت شيئاً من قواي.. بدأت تنهال عليَّ بوابل من القنابل..

«حسناً» لدينا قرارات كثيرة يجب أن نتخذها بسرعة..

أولاً: الحمل.. إن كنت تريدين الاستمرار فيه أم إنهاءه..

الجراحة.. بالنسبة لسرعة انقسام الورم وحجمه.. ستحتاجين لاستئصال الثدي كاملاً.. لن نستطيع استئصال الورم فحسب..

الكيماوي.. ليس كل النساء تحتاج للكيماوي بعد إزالة السرطان، لكن بالنظر لعمرك الصغير.. ولشراسة النوع الذي لديك.. يجب أن نعطيه الكيماوي كذلك.. وهنا تأتي مشكلة الحمل.. لا أعتقد أن بإمكاننا تأخيره حتى تضعي مولودك.. فبالتالي.. يجب أن تأخذيه خلال الحمل.. أو.. أن تجهضي.. ولو أجهضتِ.. لا أعلم إمكانية أن تحملي ثانيةً بعد كل العلاج الكيماوي والإشعاع..

مع كل ما قالت.. رأيت زوجي انتفض عندما تحدثت عن احتمال عدم قدرتي على الحمل ثانية.. لكنه تماسك.. أما أنا فمع كل خبر من أخبارها كنت أشعر بوزن ثقيل يسقط على قلبي أكثر وأكثر وأكثر.. وبداخلي ابتسامة ساخرة..». أبهذه السرعة يحدث كل هذا؟.. بهذه السرعة.. كنت أدرك أكثر فأكثر أن حياتي القديمة قد انتهت.. وأن هذه حياة جديدة و«نور جديدة».. غداً يزال ثديها.. ويسقط شعرها مع العلاج.. وربما تفقد جنينها.. وربما.. لا تحمل ثانية.. وربما.. لا تعيش طويلاً..

وكأن ما قالته لم يكن كافياً فأضافت.. «وبالنظر لعمرك الصغير علينا أن نفكر في إجراء فحص للجينات.. فإن كان لديك الجين المسبب لسرطان الثدي فربما.. يجب أن نفكر في استئصال الثدي الثاني وربما المبايض كذلك.. من باب الاحتياط.. (قبل أن تصاب بالورم)..

ومع احترامي الشديد للطبيبة.. فالمعلومة الأخيرة لم يكن لها أي داع في هذا

التوقيت.. فأنا الآن عندي ورم متوحش.. وقد تلقيت الخبر لتوي.. ولدي الكثير لأتعامل معه في اللحظة الراهنة.. فليس هذا هو الوقت المناسب أبداً للحديث عن الخطر المحتمل الذي ربما يصيب الثدي الآخر أو المبايض خلال الخمس - العشر سنوات القادمة.. فليس كل ما يعرف.. يقال في التو..

كنت طوال حديثها متماسكة جداً.. أسأل أسئلة كثيرة وأناقش الخيارات المتاحة.. فرأت طبيبة الجراحة أنه ليست لديها كل المعلومات لإجابة أسئلتي.. فأخبرتني أنها ستدعو طبيب الأورام (المسؤول عن الكيماوي) ليعطيني إجابات أدق، فهذا هو مجال تخصصه.. وخرجت لتناديه.. وما أن أغلقت الباب.. حتى انفجر سد كان يحبس شلالاً من الدموع.. وقام زوجي ليحتضنني.. وبقيت أبكي لدقائق.. لم أفكر في شيء.. كان الأمر أكبر من أن أفكر فيه.. كنت فقط أحاول تفريغ شيء من الثقل في قلبي.. وبعد لحظات.. نظرت إلى زوجي.. كان ثابتاً.. مبتسماً.. «أنت تحتاج أن تبكي كذلك.. لا تكبت دموعك.. من حقك أن تبكي».. فابتسم وعيناه تغرغران.. «فإن بكينا نحن الاثنين.. من سيسكتنا»..

ثم دق الباب.. فمسحت دموعي بسرعة.. وقفز هو وعاد لكرسيه.. وكأن شيئاً لم يكن..

ودخل طبيب الأورام..

دخل خافضاً رأسه محنياً ظهره مظهراً حزناً شديداً..

فكرت.. هل يضطر لأخذ هذه السحنة الحزينة أمام كل مرضاه.. وابتسمت له.. فكأنما شعر أنه ليس بحاجة للتظاهر بالحزن.. فابتسم.. وقال بالعربية المكسرة «كيفك؟»

- الحمد لله..

- أجدادي كانوا من لبنان.. لكني لا أعرف من العربية إلا كلمات..

بدأ طبيب الأورام يناقش كل الحلول وكل الاقتراحات ويطرح كل التساؤلات وكل المعلومات التي تنقصنا لاتخاذ القرار.. وكنت أنا وكأنما أتحدث عن شخص آخر.. أناقش الخيارات بكل عقلانية.. وأطرح الأسئلة العلمية حتى أنهى حديثه وخرج.. فأعطاني فسحةً أخرى للبكاء..

ودخلت الممرضة..

أعطتني كتاباً ضخماً بعنوان «سرطان الثدي».. وأخبرتني أنه مرجع ممتاز لي.. نظرت للكتاب وقرأت العنوان.. وكأني أدرك لأول مرة.. أن هذا العنوان.. أصبح يخصّني.. ويمثّلني..

«لدينا مجموعات دعم لمرضى سرطان الثدي، حيث يمكنك التعرّف على مريضات أخريات.. وكذلك لدينا أخصائية اجتماعية مختصة إن أردت التحدث ومشاركة إحساسك»..

كانت بادرة لطيفة منها.. لكنها لم تزد إلا أن أشعرتني أكثر فأكثر أن هويتي.. حياتي واحتياجاتي.. تغيّرت منذ اليوم..

قال صلى الله عليه وسلم: اغتنم خمساً قبل خمس.. صحتك قبل مرضك..

يومان من القلق

تقرر موعد العملية.. ولازلنا مع الأطباء في مناقشات مستمرّة.. إن كان العلاج بهذه الطريقة واللحظة هو الصواب أم لا.

ولازالت الأسئلة التفصيلية تتفتّق كل لحظة..

هل نحتاج لبعض الإشعاعات قبل العملية لنرى أين انتشر الورم.. أم أن علينا تجنّبها لنجنّب الجنين خطر الإشعاع..

هل نحتاج لحقن صبغة خلال العملية داخل الورم لنرى أي الغدد اللمفاوية ستلتقطه ونقوم باستئصال هذه الغدة وتحليلها، أم أن الأفضل أن نتجنب الصبغة التي قد تضر بالجنين، وفي المقابل نقوم بتحليل كل الغدد اللمفاوية التي تواجهنا مما يعرض لخطر مضاعفات كثيرة كقطع في الأعصاب الموصلة لليد والذراع وحصول انتفاخ شديد في الذراع واليد لا يمكن علاجه بعد ذلك.. هل وهل وهل؟؟ الكثير من الخيارات.. وموعد العملية يقترب.. وأنا لا أدري ما الخيار الصحيح ولا الأطباء يدرون.. وكلنا نتخبّط..

والقلق في داخلي يزداد ويزداد.. حتى بدأت أقلق على كل شيء.. ماذا لو حدثت مشكلة في التخدير.. ماذا لو حدثت كارثة في العملية.. ولو.. ولو..

ثم قرّرت التوقف عن التفكير تماماً، وأن أستعين فقط بمن يهمه أمري ويريد مساعدتي حقاً.. يعرف كل شيء.. ويعرف تماماً ما العلاج الأصلح والطريق الآمن ويقدر على كل شيء.. فلا يعجزه أن يقوم بأي شيء كيف شاء.. وهكذا عدت وجلست بين يديه..

وقلت ياربّ.. ما هؤلاء الأطباء إلا صور.. أنت خلقتهم.. أنت أعطيتهم ما لديهم من قليل العلم.. وأنت الذي تسيّرهم وتسخّرهم.. ولولا أنك أمرتنا أن نأخذ بالأسباب ما ذهبت لطبيب ولا سألت دواء.. ولكنك شئت أن تضع شفاءك في هذه الأسباب التي بين أيدينا..

ياربّ.. أنا أوكلتك أمري.. وأنا أثق فيك وحدك.. لا في الجراح ولا في طبيب الأورام.. ألقيت أمري كله بين يديك وأنت أعلم بي منّي وأعلم بما يصلحني ويصلح

الذي بداخلي منهم..

ياربّ هم في علمهم يتخبّطون.. وأنت القادر على كل شيء..

ياربّ هم في النهاية عاجزون.. وأنت القادر على كل شيء..

ياربّ.. أسألك أن تدبر لي أمر هذه العملية بما يصلحني ويصلح جنيني من حيث لا نحتسب ولا ندري..

ما طبيبة الجراحة إلا أداة في يدك.. فألهمها ما تقطع وما تدع.. حتى تزيل كل شيء يجب إزالته وتبقي كل شيء يجب إبقاءه.. حتى لا أجد شيئاً من كل المضاعفات التي يثقلون بها كاهلي ويحدّثونني عنها ويخوفّونني منها..

ياربّ.. أنا أسألك أنت وحدك.. ولا أسأل سواك.. فليس أحد سواك يقدر.. وليس أحد سواك يعرف..

أنت وحدك اللّه..

أنت وحدك اللّه..

أنت وحدك اللّه..

الحكمة

الآن.. يأتي الكلام.. عن الموضوع الأصعب.. والأهم.. الحكمة.. ترى أين الحكمة في كل هذا.. في أن تتبدل حياتي بهذه السرعة.. فلا تعود كالسابق أبداً.. ما الحكمة..

لم أحتج إلى وقت طويل لأدرك أول سبب.. فقد كان بالنسبة لي أوضح من الشمس.. كانت حياتي قبل المرض.. دوامة.. أسير فيها معصوبة العينين.. كنت في السنة الأولى من الاختصاص في الطب النفسي.. وكان ضغط العمل كبيراً.. كان كل ما أعمله خلال أسابيع وأسابيع.. هو الذهاب للعمل.. في خضم هذا الركض السريع.. نسيت من أنا.. ماذا أريد.. ما الهدف من وراء هذا الركض.. لماذا تركت أهلي ووطني وجئت لأتغرب أنا وزوجي وابني.. ونحن لا نجد حتى بعض الوقت لنرى بعضنا.. وابني يتنقل بين الحضانة (لـ ٩ ساعات يومياً) إلى جليسة الأطفال خلال الوقت الباقي، حتى أعود من العمل..

كان كل شيء في حياتي سريعاً.. ولا طعم له.. كانت الصلوات تؤدى خطفاً.. حتى أعود للعمل.. وكنت أرى زوجي خطفاً كل أسبوع أو أسبوعين.. بحسب ما تسمح المناوبات.. ولم أكن أرى ولدي إلا لنلبس ثياب النوم وننام..

وكان بداخلي شيء يصرخ.. ليست هذه هي الحياة التي أريدها.. أين المعنى؟.. أين الهدف؟.. أين العطاء؟.. أين العلاقات؟.. أين القراءة والتأمل والعبادة والكتابة؟.. أين ذهب كل ما يعطي لحياتي معنى؟.. وكنت أصبّر نفسي أنها.. فترة محدودة.. لسنتين من الركض.. ثم يقل عبء العمل.. ويكون لديَّ وقت أكثر.. ربما لأتذكر حينها من كنت وماذا كنت أريد أن أكون..

كنت أحتاج بعمق.. لوقفة.. أقف فيها مع الله.. وأخلو به.. وأتذكر.. لماذا كل هذا.. أتذكر الهدف.. والنيّة وأعيد إصلاح الدفة..

كنت أحتاج لوقفة.. أقيم فيها وضعي الحالي.. وهل هو في الاتجاه الصحيح الذي كنت أريده.. هل أتعلم العلم الذي جئت لأجله أم أني أبذل كل هذا لاسم (شهادة البورد الأمريكي) بينما لم أتلق من العلم الذي كنت أحلم به إلا الشيء اليسير.. لأني مستهلكة في أعمال روتينية أخرى تخدم العمل ولا تخدم هدفي من العمل..

لم أكن لأمنح نفسي هذه الوقفة.. فقد كنت أرى الوقوف انهزاماً.. لم أكن لأعطي نفسي الفرصة لالتقاط أنفاسي وترميم داخلي.. فقد كنت أظنُّ القوة هي أن أستمر في الركض مهما حدث..

فأراد الله أن يعطيني هذه الفرصة.. وقد علم سبحانه أن الحدث يجب أن يكون جللاً.. حتى أقف.. وأعيد تقييم الأولويات بصدق وأنا أرى حياتي كلها.. مهددة بالزوال قريباً.. ما لم تحدث معجزة من السماء.. حينما يكون الموت قريباً هكذا.. تتبدّل الأولويات.. تصغر أمور.. وتكبر أمور..

تصغر الوظيفة.. والشهادة.. والسمعة.. و«البورد الأمريكي».. بعد أن كانت في حياتي.. كل شيء.. ويعاد النظر في الأولويات.. في «الغايات» و«الوسائل للغايات».. فأتذكر أن الشهادة والبورد الأمريكي.. لم تكن في البداية إلا وسيلة.. وسيلة للعطاء.. لنفع الناس وللقرب من الله.. فكيف ضاعت الغاية وبهتت حتى تلاشت أمام الوسيلة..

بالأمس.. جلست «أحدث الله» وحدي.. تحدثت طويلاً وبكيت كثيراً.. وشعرت بفيضٍ من الرحمة والحبّ يغمر قلبي.. فلم أملك ابتسامة واسعة تبللها الدموع.. سجدت عندها شاكرة وأنا أفكر.. لأجل هذا خلقت.. لأجل هذا القرب.. لأجل هذه السعادة!!..

قبل يوم من العملية

في ذلك اليوم اتصل طبيب الأورام وترك رسائل عدة على الإيميل، المحمول والهاتف يقول إنه يريد أن يراني «فوراً».. دب الرعب في قلبي وقلب زوجي.. وكنا بعيدين جداً عن المستشفى، فتركنا كل ما في أيدينا وأسرعنا لمقابلته. في الطريق كان قلبانا يخفقان.. وكل ما يدور ببالي هو.. لا شك أن كارثة حصلت ليطلبنا بهذا الشكل.. هل اكتشف انتشار الورم من خلال التحاليل، فرأى أنه لا داعي للعملية وأنه علينا أن نفقد الأمل ونكتفي بالعلاج التلطيفي لتخفيف الأعراض حتى تحين الوفاة.. حاصرتني المخاوف من كل جانب.. ثم ذكرت قول الله.. ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ (آل عمران/١٧٣-١٧٤)..

ماذا يملك الطبيب ليقول؟.. أيملك أن يقول لن تعيشي أكثر من شهر.. ليس هناك أمل.. لا داعي للعلاج..

وهل هذا بيده؟.. من هو لأخشى كلامه؟.. ما علمه أمام علم الله؟ وما قدرته أمام قدرة الله؟.. ما قيمة كلامه أمام إرادة الله؟..

حسبي الله ونعم الوكيل.. بقيت أرددها حتى دخلت عليه..

فلم يكن في جعبته سوى بعض النتائج لبعض التحاليل التي كما وصفها «ليست سيئة وليست جيدة.. ولكن من المهم أن تعرفيها».

تنفست الصعداء وأنا ابتسم لزوجي وهو يقول «طبيبك هذا كان سيقتلنا بالجلطة من شدة القلق»..

وعدت للبيت.. منقلبة بنعمة من الله وفضل.. لم يمسسني سوء.. لأستعد لعملية الغد..

ليلة العيد

غداً أتعرض للتخدير لأول مرة في حياتي..

غداً.. لا أعرف كم من المضاعفات سأواجه..

غداً.. يتبين لي مع تحليل العينات كم حجم الورم وإن كان قد وصل للغدد اللمفاوية أم لا..

ومع كل هذه المخاوف.. جاءني إحساس غريب.. يصعب وصفه.. إحساس ليلة العيد..

ليلة العيد ونحن صغار.. نستعد بكل حماس للغد الجميل.. الذي سيجلب كل الهدايا والعيديات والملابس الجديدة..

بلا مبرر كانت تلك الفرحة الخفيّة تغمر قلبي..

نمت مبكراً.. لم أحلم بالعملية ولم أقلق خلال النوم.. (أنا التي كنت أقلق طوال الليل ولا أستطيع النوم إن كنت مقبلة على عمل بمستشفى جديد أو زملاء جدد).

ذهبت للمستشفى وأنا أتمتم: ما دمت معي.. لن يضرني شيء.. أنت حسبي.. أنت حسبي..

وكان سبحانه حسبي في كل شيء..

دبّر وسهّل ويسّر من حيث لا أحتسب كل صغيرة وكبيرة..

أحد الزملاء في قسم التخدير كان يعمل في غرفة ما قبل العمليات في ذلك الشهر بالصدفة، وأوصى بدون أن أطلب منه أن يكون طاقم الجراحة والتخدير كله من النساء وهو ما حدث.. (كم كنت سأستاء إن كنت في غرفة مليئة بالرجال).

طبيبات الولادة المقيمات اللاتي أتين لمتابعة وضع الجنين قبل وبعد الجراحة كُنَّ في غاية التعاطف واللطف باعتباري زميلة في نفس المستشفى أصابها هذا المصاب..

الممرضات المساعدات في الجراحة والإفاقة كن جميعاً من طائفة الأمهات وعاملنني كابنتهن.. أمسكن بيدي جلبن زوجي ليكون معي حتى دخولي للعملية، وطلبن (بدون أن

أطلب منهن) غرفة خاصة لي بعد العملية.. وعاملنني كابنتهن المدلّة..

لكوني (حامل) لم أتمكن من أخذ دواء ما قبل التخدير، وهو الذي ينيم المريض قبل الوصول لغرفة العمليات حتى لا يقلق ولا يشعر بالتخدير، وبالتالي بقيت مستيقظة حتى دخلت غرفة العمليات ونظرت لكل ما فيها من مشارط ومقصات وتم إعدادي للعملية وأنا في كامل الإفاقة، فسبحان من أنزل عليَّ السكينة حينها.. وبقيت أتمتم: بسم الله الذي لا يضرُّ مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء وهو السميع العليم..

وكان آخر ما أذكره قبل التخدير هو قول إحدى الممرضات: لا تخافي.. سنعتني بك جيداً..

فابتسمت وأنا أفكر.. العناية أرجو، لكن ليس منكم.. بل من رب السماوات والأرض..

المتهم الأول.. العين

اتصلت بي إحدى الصديقات العزيزات.. «نور.. عندي سؤال مهم.. هل فكرت في العين كسبب لما أصابك؟»..

بالطبع لم تكن الأولى.. فقبلها بفترة لفتت صديقة أخرى نظري أني حين حصلت على القبول للزمالة الطبية بجامعة مجيل بكندا.. أصبت بأعراض ولادة مبكرة في حملي الأول منذ الشهر السادس واضطررت لترك البرنامج.. والآن حين قبلت وزوجي للزمالة في أمريكا (وهي من أصعب الزمالات حول العالم في الإعداد والقبول).. أصابني المرض بعد أشهر من بدء العمل.. والكل كان يتحدث أن قبولي وزوجي في نفس المدينة «معجزة»..

حسناً.. لنبدأ الموضوع من البداية.. هل هناك ما يسمى بالعين؟.. نعم.. العين حق.. وردت في الحديث ولا أستطيع إنكارها..

لكن ما الفائدة التي تعود عليَّ من نسب مرضي لحسد الحاسدين.. كل ما سأجنيه هو أني سأشعر بالظلم.. وأن الظلم وقع عليَّ من «نفوس شريرة» حولي لا أعرفها.. سأنعزل.. سأجتهد لأخفي نعم الله عليَّ.. سأعيش الشك والكراهية لمن حولي باعتبارهم سبباً «محتملاً» لما أنا فيه..

فهل هذا ما أريد الوصول إليه؟.. هل هذه الأحاسيس تعين على الشفاء؟.. القوة؟.. والعطاء؟!!..

وأنظر حولي في مجتمعنا فأجد الكثيرين والكثيرين ممن عاشوا ولا يزالون يعيشون ضحية لهذه الأحاسيس ولأكبر حد..

العنوسة.. الطلاق.. فقدان الوظيفة.. ضياع فرص استثمارية.. المرض، كلها مصائب تحدث للجميع.. ولكن في مجتمعنا وحده نرى الناس فوراً يشيرون بأصابع الاتهام لأنفس شريرة حولهم جلبت لهم هذا المصاب أو ذاك وأوقعتهم في المهالك.. ويعيشون بعدها أسرى لعقدة الظلم وإحساس الضحية.. أسرى للشك في كل أحد حتى أقرب الناس منهم..

ويضيّعون على أنفسهم أكبر متعة حقيقية تكمن داخل كل ابتلاء.. متعة البحث عن الحكمة الإلهية والرسالة الربانيّة من وراء البلاء.. فلعلها كانت رسالة حب وقرب.. أو نضج ورقي.. أو تصحيح مسار.. أضاعها المسكين على نفسه وهو يبحث عن (الجاني) الذي حسده.

ولعل المولى فتح بالابتلاء باباً من الرزق والعطاء لم يكن يخطر له ببال.. لكنه لم ينتبه له ولم يعره اهتماماً وسط دموعه وقهره من فلان الذي حسده وفلانة التي سحرته..

ألا ترون معي أننا كمجتمع نعطي (القوى الخفيّة الشرّيرة) أكبر من حجمها بكثير.. ونسمح لها (إن وجدت) أن تكون سبباً لتعاستنا وقلقنا وعدم استمتاعنا بالحياة.. حتى أن منّا من يظنُّ أن عين الحاسد وسحر الساحر أقوى من القرآن والتحصين، مما يفتح الباب للمشعوذين و(الشيوخ المفتعلين) ليسترزقوا ويبنوا ثرواتهم على حساب قلة ثقتنا بالله وقدرته..

قال صلى الله عليه وسلم «واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك.. رفعت الأقلام وجفّت الصحف».

نعمة استئصال الثدي

بعد يومين من عمليتي.. حان الوقت لإزالة الشاش واللصقات.. لأنظر للجرح.. حيث كان هناك قبل يومين عضو مهم لكل أنثى.. لتشعر أنها أنثى..

كانت الممرضة المنزلية معي.. فلم أظهر أي اهتمام بالمنظر الجديد.. ثم رحلت.. وحان وقت النظر في المرآة..

كان منظراً مؤلماً وغير متوازن.. لم يستطيعوا أن يقوموا بجراحة تجميل في نفس الوقت لكوني (حامل).. فلم يريدوا إطالة مدة العملية وتعريض الجنين للمزيد من الخطر.. ولكوني سأبدأ بالعلاج الكيماوي بأسرع ما يمكن، فلم يريدوا أن يؤخروا زمن التئام الجرح..

نظرت للمنظر الذي زاد من بشاعته أنبوبان متدليان من الجرح لتفريغ الدم والسوائل، وقلت بصوت أسمعه.. الحمد لله.. كفى سخافة..

حاولت أن أقلل من شأن الأمر بقدر ما أستطيع.. فجلست أعد النعم في كونه مجرد ثدي..

- أنا لا أحتاجه للكتابة ولا للقراءة.. ولا للتفكير.. ولا للسير.. هو مهم فعلاً لكن أهميته محدودة في جزء واحد من الحياة.. فهو لا يؤثر على كل جوانب حياتي..

- أنا لم أصب بداء ذلك المريض الذي رأيته قبل أشهر.. إذ أصابه سرطان في عينه.. فاضطروا لاستئصالها كاملة.. ولم يستطيعوا تعويضه بعين زجاجية (لأسباب شبيهة بأسبابي).. فبقيت الفتحة في وجهه.. ثم أصابته حكة في موضع الجرح فكان يدخل إصبعه في تجويف الحدقة وبغير أن «يعلم» يحك دماغه مباشرة (من غير إحساس) حتى اكتشفوا خراجاً كبيراً في الدماغ من أثر «حكة لدماغه» حتى أننا كنا نسميه في المستشفى (the brain picker).. الحمد لله.. ليست عيني هي التي نزعت..

- الحمد لله.. أن ابني ذا الثلاث سنوات بخير وعافية.. ولو شاء الله أن يصيبه السرطان بدلاً مني.. لكان ذلك أشق عليَّ بألف مرة.. فهو لا يدرك بعد معنى الحكمة من وراء الأمور.. ولا يستطيع تصبير نفسه.. وكل ما يستطيعه أن يبكي بحرقة بسبب

ألم لا يفهم له سبباً.. أظن أن ابتلاء الأم بابنها أعظم بكثير من ابتلائها في نفسها.. فلله الحمد.. على نعمه..

- الحمد لله الذي حفظ لي عقلي.. فهو رأس مالي وأهم وأغلى ما أملك.. أذكر أني رأيت في الطوارئ فتاة في مثل عمري.. تعمل ممرضة.. ليس في عائلتها أحد مصاب بمرض نفسي.. وهي قد أصيبت (بلا مقدمات) بالفصام.. فصارت تسمع أصواتاً وتعيش أوهاماً.. فقدت وظيفتها.. وأصدقاءها.. وفقدت احترامها لدى الناس بهلاوسها وتهيؤاتها التي ليس لها فيها أي ذنب.. فالحمد لله على المرض العضوي الذي يجمع الناس حولك يدعون لك ويسألون لك العافية.. والذي عافانا من المرض النفسي الذي ما زال المريض يلام عليه وكأنه قد جلبه لنفسه..

- الحمد لله الذي أحاطني بأهل وأصدقاء.. يهوِّنون عليَّ.. ويواسونني ويشعرونني بحبّهم ورزقني والدين، دعاؤهما لي خير من الدنيا وما فيها..

- الحمد لله.. الذي أنزل عليَّ من عظيم لطفه.. وأحاطني بعنايته وأشعرني بقربه ورعايته.. منذ جاءني الخبر.. وحتى هذه اللحظة..

- الحمد لله الذي مكنني من إبقاء الجنين (إلى الآن).. فمع ألم الاستيقاظ من العملية بعضو ناقص.. فإن ألم الاستيقاظ من العملية بعد فقد طفلي (عمداً).. أشدُّ بكثير.. فاللهم أدم عليَّ هذه النعمة وارزقني أن أستمر في هذا الحمل حتى النهاية واجعله ياربِّ مولوداً رضيّاً تقيّاً من أوليائك الصالحين..

درس ثقيل في التوكل

منذ بداية حملي وقبل أن أعلم بمرضي كان كل همّي أن أكون «الأم المثالية» بقدر ما أستطيع..

حملت همَّ كل شيء.. كل التفاصيل..

كان همّي الأكبر هو الرضاعة الطبيعية.. كيف لي أن أرضع المولود أطول فترة ممكنة وأنا لا يسمح لي بإجازة لأكثر من أسابيع معدودة أعود بعدها لعمل لا يرحم ومناوبات تبقيني بعيدة عنه أكثر من ٢٤ ساعة..

كيف يمكن أن أقي المولود الاحتكاك بعدد كبير من الأطفال في الحضانة، مما يسبب العدوى والالتهابات خلال شهور حياته الأولى..

كيف يمكن أن أكون الأم الأكثر «صحيّة» خلال الحمل.. توقفت عن شرب الشاي والقهوة لأقيه أضرارهما.. توقفت عن استخدام الميكروويف لتجنب خطر الإشعاع وتوقفت عن وضع الهاتف الجوال في جيبي وصرت أغلقه تماماً معظم الوقت لأجنّبه الموجات الكهرومغناطيسية.. كنت أنتقي طعامي انتقاءً لأضمن له صحة أفضل..

كنت أظن أني (بيدي وبقوتي وتخطيطي) سأجلب للمولود تمام الصحة.. وأرهقت نفسي في التفكير في كل التفاصيل.. حتى ما بعد الولادة.. حملت الهمَّ وكأني أنا من سيصنع الصحة ويهديها له..

ثم جاء الحدث الجديد وغيّر كل شيء.. أنا التي كنت أرفض شرب الشاي والقهوة حتى لا أؤثر على الجنين صار عليَّ أن أمر بالتخدير والجراحة أثناء الحمل وأن أحقن بصبغة مشعّة داخل الورم خلال الحمل والأسوأ من ذلك أن آخذ العلاج الكيماوي الذي يبدو لنا كمارد مدّمر لكل الخلايا التي تنمو وتكبر.. أن آخذه خلال الحمل.. كان الخيار هو.. إما أن أثق في الله وأرفع يدي وأسلّم وأقول ياربّ ليس لي من الأمر شيء.. أو أن أقتل الجنين بنفسي (كما نصح الأطباء) لتجنّب احتمال تعرضه لأثر العلاج السيئ..

فاخترت أن أثق في الله.. وأدركت لأول مرة.. أني مجرد (أَمَة).. لا أملك لنفسي نفعاً ولا ضراً.. وأن الله وحده هو مانح الصحة.. وهو القادر أن يكمّل خلق جنين غذي

بالكيماوي .. وأن ينقص خلق جنين كان من المفروض أن يولد سليماً..

علمت أني كنت أحسب أني أمسك بزمام الأمور.. أني من يخطّط ويدبّر وينفّذ.. فجاء الدرس.. أننا نحن البشر أضعف من ذلك بكثير.. وأن الله وحده هو الفاعل.. وهو وحده القادر..

عزيزي الرجل الشرقي..

يتصل بي زملاء العمل والأصدقاء من الأمريكيين.. يسألون عنّي ثم يسألون عن زوجي باعتباره شريكي في المصاب.. كيف هو؟.. كيف نفسيته وتحمله؟.. هل يحتاج هو كذلك للمساعدة (أو حتى للعلاج النفسي!)؟..

ويتصل بي أصدقائي وأحبابي من بلادنا العربية.. فأشمّ لدى الجميع نوعاً من (الدهشة) والفرحة بما لم يكن متوقعاً..

«زوجك يدعمك!! كم أنت محظوظة!! الحمد لله الذي رزقك بهذا الزوج.. الحمد لله أنه لم يخذلك أو يتخلى عنك»..

وكأن المتوقع من الرجل العربي أن يكون (نذلاً) بالفطرة..

ولو تخيّل أيّ منا بفطرته الطبيعية شخصاً يعيش معه سنين (ولو كان مجرد مشارك للسكن).. ثم أصيب هذا الشخص بمرض أو مصيبة.. أليس من الطبيعي أن يتأثر كلٌّ منا.. ويدعم ويساعد.. فما بالكم بشخص يشاركك البيت والمأوى والمشاعر والأبناء والفراش..

لماذا نتوقع أن يرحل الرجل الشرقي مع أول محكّ..

وتعود بي الذاكرة لزمن قديم.. لحصة الدين في المدرسة.. وأذكر في أحد الدروس حديث المعلّمة عن التعدّد..

«وهناك حكم كثيرة للتعدد.. منها أن المرأة تشيخ أسرع من الرجل فإن شاخت وتعبت وبقي هو (فحلاً).. فليتزوج من شابة صغيرة ليعصم نفسه!!» بعد أن أنفقت المرأة حياتها لأجله وسهرت وتعبت ليحقّق نجاحه وأنجبت أولاده وأنفقت صحتها في خدمته وخدمتهم.. يكون جزاؤها إذا أصابها الكبر أن يدير (الفحل) ظهره لها ليبحث عن جارية أخرى..

«ومن المبرّرات أيضاً أن المرأة قد يصيبها مرض كالسرطان مثلاً.. فلا تعود قادرة على أداء حقوقه.. فله أن يتزوج ليعفّ نفسه!!».

أهذا هو الدين الذي أنزله الله؟ هل قال الله إن على الرجل أن يعيش أنانية مطلقة

وكل همَّه في الحياة (إشباع شهوته الجامحة).. فإن سقطت زوجته مريضة، فبدلاً من أن يكون إنساناً يشعر ويتألم ويربّت ويدعم.. تحركه غريزته الحيوانية ليبحث عن جارية أخرى يضاجعها..

هل هذا هو الدين الذي أنزله الله.. الكريم العظيم.. الذي يأمرنا بحفظ المعروف وردّ الجميل؟..

الإسلام الذي لم يذكر التعدد إلا كمسؤولية على عاتق الرجل ليعول أكبر عدد من نساء مجتمعه لا كوسيلة لتغيير الزوجات كما تتّبدل قطع غيار السيارة.. وعلى هذا كان نهج السلف الصالح من الزواج بالأرامل والمطلقات حتى لا يبقين بغير عائل..

لماذا نربي رجالنا منذ الصغر على الأنانية؟.. على أنهم يستحقّون كل شيء ولا يستحقّ غيرهم شيئاً؟!.. لماذا نربيهم تربية (العمدة) و(سي السيد).. الذي خُلق ليُخدم لا ليخدم وليُعطى ويُغذى ويُمتّع ويرفّه بلا مقابل غير وجوده الذكري المقدس؟..

أعتقد بصدق أن رجالنا خير من ذلك.. وأن التربية الذكورية المريضة جنت علينا وعليهم.. وأنه علينا أن نرقى بتوقعاتنا منهم على الأقل إلى حد (الإنسانية)..

كيف أشكرك يا اللّه؟!

أردت أن أكتب إليك قبل كل شيء.. لأقول لك.. لا أدري حقاً كيف أشكرك.. ما أعظم هذه النعمة التي أوقفتني عن الركض الأعمى.. لأجل هدف بات مع الأيام مسخاً لا معالم له..

أنك أخذتني من وسط كل الضوضاء.. والركض.. الأنفاس المتسارعة.. لأقف في سكون بين يديك.. وأنعم بقربك.. وتغمرني برحمتك.. وأستعيد لذة مجالستك..

وحشتني يارب... حقاً (وحشتني).. كم من زمن مرَّ دون علاقة حقيقيّة وإن كنت أصلّي لك خمس مرات..

كم من زمن مرَّ.. والصور والناس والأحداث توقف كل محاولة مني للقرب منك، فلا أجد نفسي إلا أغوص أكثر وأكثر في وحل الغفلة.. فقد كل شيء طعمه بدونك.. وصارت كل الألوان باهتة.. فيا لفرحتي بهذا المرض الذي أعطاني الفرصة.. لأقف.. وأترك كل شيء خلفي.. وأجلس إليك.. كما كنت قبل سنين.. حقاً اشتقت إليك..

لا أجرؤ «إلا في بعض الأحيان التي أنت بها أعلم».. أن أتشرّط عليك.. وأقول لك اجعل الورم يختفي.. أو اجعله يستجيب للعلاج.. أو افعل بي كذا أو كذا.. ربمّا لأنني حقاً مستمتعة بكوني معك.. حتى أن أي شيء آخر لم يعد يفرق.. الموت والحياة.. ما داما في قربك.. أليسا سواء؟

يحدّثني الناس.. وكأنما يريدونني أن أملي عليك شروطي.. ثم أتوقع منك الاستجابة.. فإن لم أفعل فأنا من أهل التشاؤم.. ولا أتمتع بقوة (التفاؤل).. لكني حقاً لا أجرؤ.. أبعد سنين من البعد.. وفي اليوم الذي يتاح لي أن أكون أقرب إليك من أيّ وقت مضى.. آتيك بقائمة الطلبات.. وكلها تدور حول إزالة السبب الذي قربني منك..

رفعت يدي كما أخبروني لأسألك الشفاء.. فكان أكثر ما استعذبت من دعاء قول أيوب عليه السلام.. (ربِّ.. إني مسَني الضرُّ.. وأنت أرحم الراحمين).

فما أرقه من سؤال..

مسّني الضرّ.. لم يقل.. أهلكني الضرّ.. كسر ظهري الألم.. لم أعد أحتمل.. قالها

مهوناً من شأن البلاء.. وهو يعلم أنك أعلم به من نفسه وأنك وحدك تعلم كم يعاني..

ربِّ.. إني مسّني الضرّ.. ثم ماذا.. أين قائمة الطلبات بإزالة المرض ثم ردّ الأهل ثم عمل كذا وعمل كذا..

لم يفصِّل أيوب.. لعله استحى أن يفصّل.. وهو يعلم أن ربّه يعلم كل شيء.. ويعلم أفضل سبيل وأفضل مخرج لما هو فيه.. كان كل ما قاله هو.. وأنت أرحم الراحمين..

هذه حالي من الضرّ.. وهذه حالك من الرحمة.. ولن أزيد..

فأنت تعرف كل شيء.. تشعر بألمي.. ترى حالي.. تعلم ما أحتاج وما يصلح لي (في الدنيا والآخرة) أكثر من نفسي..

فلماذا أقول أكثر..

الحمد لله.. الحمد لله.. الحمد لله.. هذا فقط هو ما ينبغي عليَّ ترديده.. لأني مهما شكرتك.. لن أوفّيك أبداً شكر نعمة مجالستك.. بعد بُعْدٍ طويل..

كلام الناس

قضاء الله يأتي برحماته وعطاياه.. فيخفّ على النفس.. ويهون.. أما كلام الناس.. (أو فلسفتهم).. فهو في كثير من الأحيان.. أشدَّ على مريض السرطان من القضاء..

أتكلم الآن عن الناس المقرّبين.. المحبين الذين لا يريدون للمريض إلا كلّ خير.. كلّ خير على طريقتهم هم.. ومن وجهة نظرهم هم.. وهنا تبدأ فلسفة وتشدّق.. لا ينتهي إلا ليبدأ..

«ماذا؟ تريدين أن تبقي في أمريكا؟.. غلط.. غلط.. يجب أن تعودي للسعودية.. وهناك دكتور (فلان).. وهو أكثر من ممتاز.. ماذا يبقيك في أمريكا!!».

وتنسى المتحدثة أن لي زوجاً يعمل في أمريكا.. وأن ما أحتاجه أكثر من الطبيب (فلان) جراح الثدي.. فأنا أحتاج فريقاً من الأطباء، منهم وأهمهم طبيب أورام (للعلاج بالكيماوي) يستطيع أن يختار الأنواع الأفضل بالنسبة لنوع السرطان الذي لديَّ والذي يعتبر (نادراً).. مع اعتبار كوني (حامل).. أشرح لها هذا.. فتصدم أني لا أسمع تعليماتها وتتمتم.. «الله يهديكِ.. الله يهديكِ»..

أوصل ابني للحضانة.. فتراني إحدى الصديقات العزيزات.. تراني فتقول بدون مقدمات: «أنا من رأيي.. أن تجهضي الحمل.. هذا رأيي!!».

هل تعرف كل التفاصيل عن هذا القرار؟!! لا.

هل تعرف رأي زوجي وطبيبي المعالج؟!! لا.

هل سألتها رأيها بسبب حيرتي البالغة؟!! لا.. لماذا إذاً.. الفلسفة؟

تتصل بي فجأة صديقة عزيزة.. تخاف عليَّ كنفسها.. وأعلم مدى إخلاصها.. تتصل وتبدأ الكلام بانفعال شديد..

«أمك أخبرتني أنك تنوين إكمال الحمل.. إذا كان المتحدث مجنوناً فالمستمع عاقل.. يبدو أنك لست (واعية).. وتحتاجين لمن (يوعيك).. وهنا بدأت بالصراخ.. «أنت مريضة.. مريضة.. هذا ليس زكاماً.. هذا مرض خطير.. ثم تأتين بطفل (معاق أو منغولي).. بسبب العلاج خلال الحمل».

أظن أنكم أدركتم ما قلته لكم.. أن قضاء الله أهون بكثير جداً من كلام الناس.

هذا غير الفضول والأسئلة العجيبة.. التي تأتي من كل أحد..

«هل سيستأصلون ثدياً واحداً أم اثنين؟».

«الكيماوي سيسقط شعرك.. أليس كذلك؟».

«يا ترى ما السبب في أن أصابك هذا المرض؟».

«عجيب أنت (دكتورة) ولم تستطيعي اكتشاف المرض مبكراً؟».

والمزيد والمزيد..

أعزائي..

مريض السرطان يحتاج للناس.. يحتاج لدعمهم.. مواساتهم.. دعائهم.. مشورتهم عندما يطلب المشورة..

أرجوكم.. إن كنتم من المقرّبين لمريض سرطان.. فلا تفرضوا عليه آراءكم.. ولا تعرضوا اقتراحاتكم التي قد تكون مؤلمة من غير أن تُسألوا المشورة.. فنيتكم وإن كانت طيّبة.. لا تعني أن حديثكم لا يجرح..

وإن كنتم من (مجرد المعارف).. فاحرصوا ألا تدعو الفضول يطلق ألسنتكم لتسألوا أسئلةً مؤلمةً جارحة.. وإن قتلكم الفضول فابحثوا في الأمر في كتاب أو موقع.. فستعلمون أن الكيماوي يسقط الشعر من غير أن تسألوا..

نحن وأولادنا

منحني المرض فرصة رائعة ليكون لديَّ الوقت للتعرف على ابني ذي السنوات الثلاث..

منحني الوقت لنجلس معاً ونلعب ونتعلم ونحكي القصص ونقرأ الكتب.. منحني الفرصة لأتعرف على شخصيته.. مفاتيحها.. نقاط قوته وضعفه.. وأي نوع من الناس هو..

منحني متعة الأمومة التي حرمتني منها ساعات العمل الطويلة من قبل.. وبينما نتفاهم ونتحدث ونتضاحك ونخرج لإطعام البط والسناجب، أذكر أمهات أخريات.. حرمن أنفسهن بإرادتهن من هذه المتعة العظيمة. أذكر المشهد في بلادنا حيث كنت أتعجب دوماً في المولات أن أرى الأطفال يقضون وقت المتعة واللعب في مناطق الألعاب مع الخادمات.. سبحان الله.. إن كان الوالدان يستثقلان قضاء هذا الوقت الممتع مع أولادهما، فلا شك أن المهام الأكثر صعوبة ورتابة كوقت الطعام والنوم والاستحمام ستكون من نصيب الخادمة من باب أولى..

ولا تدري هذه الأم المسكينة أنها تفوت على نفسها مرحلة من عمر ابنها لن تعود.. فلكل عمر جماله ومتعته.. والأيام تمضي.. وسيكبر الأطفال ولن يعودوا أطفالاً.. ولن يبقى للأم حين يكبر ابنها ويولي وجهه للخارج.. للمدرسة والمجتمع والأصدقاء.. لن يبقى لها سوى العلاقة القديمة والذكريات الحلوة التي كان من الممكن أن تعيد ابنها لحضنها وتجعلها مرفأ الأمان له مهما ابتعد..

فإن كانت الخادمة هي التي تجهّز الرضعة، وتغيّر الحفّاضة، و تهدهده حتى ينام ثم تلاعبه وتغنّي له.. ثم تعلّمه الكلام (بلغتها).. ثم تجهّز له الطعام (على طريقتها وحسب معلوماتها في التغذية الصحيّة!).. ثم تأخذه وتعيده للحضانة ثم للمدرسة، فماذا بقي للأم من أمومتها؟ وكيف لها أن تغرس في هذه النبتة الصغيرة أفكارها وقيمها وتجعل منه الولد الذي تريد، وهي بالكاد تعرفه..

وماذا يكون حال الطفل وارتباطه العاطفي (بحكم ساعات التواصل الطويلة) هو مع الخادمة التي قد ترحل في أي وقت ولأي سبب.. وهو رغم تعلّقه بها فهو تعلّق خال

من الاحترام، فهو يرى أمه كيف تعاملها بفوقية، فيتعلم منذ نعومة أظفاره أن يحبّ بغير احترام وأن يحبّ ويذلّ من يحب.. وأن يرى العطاء ممن يحبّه (الخادمة) واجب لا تشكر عليه، بل تقدمه رغماً عن أنفها فيمّد قدمه لها لتربط حذاءه ويصرخ في وجهها إن لم تفعل ثم يبكي حرقة إن غابت عنه أو رحلت (فلا عجب أن يتعامل مع زوجته غداً بنفس الطريقة المريضة)..

ويكون النتاج والخراج كما نتوقّع من تربية الخادمات.. أطفال يفتقدون لمبادئ التربية.. لم يتعلّموا المسؤولية (فهو أعظم من أن يرتّب ألعابه أو يلّم أوساخه، فهذه وظائف الخادمة) ولم يتعلّموا العطاء (فالعلاقة بالخادمة تقوم على الأخذ دون مقابل).. ولم يتعلّموا اللباقة والكياسة ولا حتى اللغة السويّة (فهم يتعلّمون ممن يجالسون).. ولم يتعلّموا الحبّ ولا التعبير عنه ولا الإحساس بالأمان في علاقة مع شخص لا يتغيّر ولا يرحل بغير سبب، ولم يتعلّموا أي مهارات تؤهلهم ليكونوا أفراداً ناجحين في مجتمعاتهم..

سيكون على هؤلاء المساكين أن يتعلموا كل هذا بالطريقة الأصعب.. بالصواب والخطأ.. والتخّبط في الحياة.. حتى تصقلهم التجارب أو تكسرهم..

والفضل يعود لأم وأب كان كل هدفهم من الإنجاب أن يحصلوا على لقب «أم فلان» و «أبو فلان»..

القرار الأصعب

كان السؤال الذي سألنيه الجميع من يوم اكتشافي للمرض هو.. ماذا تنوين أن تفعلي بالحمل؟..

كانت جميع الأصوات من أطباء وأهل وأصدقاء (ما عدا طبيب الأورام) تدعوني للتخلص من الحمل والتفرغ لمحاربة السرطان بلا اعتبارات أخرى.. لأخفف العبء عن جسدي الذي سيكون عليه تحمل الجراحة والعلاج الكيماوي خلال الحمل الذي هو أساساً «وهن على هن»..

كان المحبوّن خاصة يصرخون فيّ بحرقة.. نحن لا يهمّنا هذا الحمل.. لديك ولد سليم معافى.. ويمكنك أن تحملي في المستقبل.. كل ما يهمنا الآن هو حياتك أنت.. لا نريد أن نخسرك لأجل الجنين..

لماذا تواصلين الحمل وتصعّبين الأمور على الأطباء.. وتقلّلين من خياراتك.. وتقلّلين من كفاءة العلاج.. لماذا «العناد والرأس اليابس!!»..

وكنت أقاوم بصلابة لإحساس قوي بداخلي أنّ عليَّ المواصلة.. حتى جاء يوم المراجعة الأولى بعد العملية.. وجاء طبيب الأورام بالأخبار.. أن الورم منتشر أكثر مما كانوا يتوقعون.. وأنه أكثر شراسة مما كانوا يظنون.. عندها قال لي لأول مرة منذ بدء العلاج.. ربما عليك التفكير ثانية في أمر الاستمرار بالحمل..

عندها شعرت بزلزلة حقيقيّة.. فهذا الذي كان يطمئنني أن الحمل لن يؤثر على العلاج تأثيراً ذا أهمية، يتراجع الآن ويشعر أن الحمل يحدّ من فرصي في العلاج الكامل بكل الأدوية التي ينبغي أن نبدأ بها في أسرع وقت ممكن.. ومع كل استشارة لطبيب كنت أسمع كلاماً عن «ترك طفلين يتيمين» و«حرمان ولدي الموجود من أمه لأجل ولد لم يولد بعد» ..

وهلم جرا..

هنا حان الوقت لتفكير منطقي.. لماذا أنا متمسكة بهذا الحمل لهذا الحدّ مع أني لم أتمناه ولم أفرح به حين جاء؟ ولماذا أشعر بقوة أن عليَّ الاستمرار؟ بدأت تفكيري

ببعض الأفكار الأنانية.. فهذا الجنين وإن كان يحملني عبئاً جسدياً، فهو دافع نفسي قوي يساعدني لأقاوم وأتغذّى وأكون بنفسية جيدة (فأنا لست وحدي في هذا الجسد).. وهو يعطيني ضوءاً في نهاية النفق.. أني سأخرج من هذه التجربة بعد فقدي عضواً مني في الجراحة وفقد شعري وصحتي خلال الكيماوي.. سأخرج من كل هذا بطفل صغير شاركني العناء.. وشاركني الداء والدواء.. طفل أحسب أن الله سيكتبه بفضله من الصالحين ومن أوليائه المتقين، إذ جاء في فترة قرب ووصل ودعاء وابتهال..

ثم.. كيف أستطيع القول إن وجود الحمل وما يترتب عليه من تأخير لبعض الأدوية والعلاجات قد يؤثر على حياتي واستجابتي للمرض، ثم أدّعي التوكل وأني موقنة أن الله هو الطبيب وأن الدواء مجرد سبب..

أنقتل كائناً (وإن لم تنفخ فيه روح بشرية مقدسة بعد.. وإن كان مجرد روح حيواني إلى هذا العمر وقبل المائة وعشرين يوماً التي تحدث عنها الفقهاء كتاريخ لنفخ الروح). لنعتبره هرّة أو فأراً.. أنقتله وهو يحسب أنه في أمان في بطن أمه فنقتحم عليه خلوته ونكسر عظامه جزءاً جزءاً لنخرجه قطعاً صغيرة.. لنطيل حياة أمه..

وهل نملك نحن إطالة حياة الأم ولو ليوم واحد؟.. ولو أراد الله أن يستجيب الورم للدواء ويكون سبباً في الشفاء فهل سيمنعه وجود الحمل؟..

ولو أراد الله أن لا يستجيب الورم للعلاج.. وأن تنتهي الحياة في يوم وساعة يعلمها هو.. هل نغيّر إرادته سبحانه بقتلنا لهذا الكائن الضعيف قليل الحيلة وإن لم تنفخ فيه الروح بعد بحسب قول الفقهاء..

أليس كبداً رطبة؟.. أليس قلباً ينبض؟.. أليس له عينان وأذنان وفم يمص به إصبعه كأي طفل؟.. أليس لديه دماغ وأعصاب وإن لم تكتمل بعد، تجعله يشعر بالألم كأي حيوان صغير مسكين.. لهذا لا أستطيع أن أقرّر أن أقتله..

ولهذا فإني أسأل الله إن كانت نهاية هذا الحمل خيراً لي وله أن ينهيها هو بلطفه ولا يحوجني لأن آخذ قراراً لا أقدر على اتخاذه..

سحر الامتنان

في المستشفى لإجراء عملية بسيطة تحت تخدير موضعي لوضع قسطرة في الوريد يمكن إعطاء الكيماوي عن طريقها.

كان من المفروض أن تكون العملية الساعة ١١ صباحاً وطلبوا مني الذهاب صائمة رغم أنها تحت تخدير موضعي.. فلم أدخل العمليات حتى الساعة الرابعة عصراً وأخبرتني الممرضة حينها أنه لم يكن هناك داع للصيام..

حاولت ٣ ممرضات وضع إبرة المغذّي وفشلن رغم علمي بأن عروقي ليست مستعصية لهذا الحد، ولكنها قلة الخبرة..

تضاربت أقوال الممرضات إن كنت سأحتاج لمضاد عبر الوريد أم لا، ولم يكن هناك طبيب لساعات ليجيب عن هذا السؤال..

أرسلوا لي طبيباً مقيماً لا يعرف أي شيء عن العملية، وكلما سألته سؤالاً أعطاني أجوبة متضاربة حتى ذهب لسؤال الاستشاري الذي جاء بإجابات مختلفة تماماً.. وخلال كل ذلك كنت أنا وزوجي نغلي حنقاً من قلة الكفاءة وسوء الخدمة.. وراح زوجي يقول لي: لماذا لا نترك العلاج في هذا المستشفى ونذهب لمستشفى أفضل، فلدينا في بوسطن مستشفى من أفضل مستشفيات أمريكا.. فتساءلت إن كان هناك في أي مكان خدمة أفضل أم أن الخدمات الصحية في كل مكان تعاني المشاكل..

وفي ظل هذا الإحساس البغيض بالغيظ تذكرت فجأة أن هناك الكثيرين الذين يتمنون هذه الخدمات الصحية التي أتذمّر منها.. هناك الكثيرون يموتون بغير أن يصلوا للطبيب رغم أن أمراضهم يسهل علاجها.. وهناك آباء يرون أبناءهم يموتون ولا يستطيعون أن يجلبوا لهم الدواء لضيق ذات اليد أو لحال البلاد المؤلم من الحرب وغياب الأمن..

تذكرت ذلك فتغيّرت نفسيتي فجأة من الحنق والغيظ إلى السعادة والامتنان.. الامتنان لله الذي منَّ عليَّ بخدمة صحية وإن لم تبلغ الكمال..

رؤية جديدة للكيماوي

اقترب موعد العلاج الكيماوي.. مخاوف كثيرة تطفو على السطح.. كيف سيؤثر عليَّ.. كيف سيؤثر على مريم المسكينة (وهو الاسم الذي أطلقته على المخلوق الصغير في بطني)؟.. هل سأكون طريحة الفراش؟.. هل سيمتلئ فمي بالتقرحات ولن أقدر على الأكل؟.. هل سيسقط شعري ورموشي وحواجبي كما أخبروني؟.

هل سأعاني من الالتهابات بسبب نقص المناعة وأضطر للتنويم في المستشفى؟.. هل سيتغير شكلي ولوني وجلدي وأتحوّل لمومياء حيّة رمادية اللون؟..

كلما قرأت أكثر عن الكيماوي وأعراضه كلما اسودّت الصورة أكثر.. لكني قررت مواجهته بشجاعة كجزء لا بد منه في هذه التجربة ..

حتى شاء الله وقامت صديقة عزيزة بترتيب لقاء لي مع طبيب ترك عمله في طب القلب لأكثر من ٣٠ سنة وقرّر أن يتفرّغ ما بقي من عمره للعمل على دعم مرضى السرطان..

لم أشعر أني أحتاج للذهاب.. (فماذا يمكنه أن يضيف لي؟) وذهبت خصيصاً لأجل صديقتي.. ولكني حقاً لم أندم..

رأيت رجلاً على مستوى عال من الفهم والعمق والإحساس الصادق.. تكلّمنا لساعات، فوجدته وهو اليهودي المولد يفهم تماماً معنى عمق العلاقة مع الله..

بدأنا الحديث عن الكيماوي وكان ذلك قبل أن أبدأه بيوم واحد.. فسألني:

– ما إحساسك؟..

– حسناً.. كان بعض الناس يقولون لي.. عليك بالدعاء والقيام والبكاء.. وسيختفي الورم ولن تحتاجي للكيماوي (اللعين).. لكني لا أشعر أن هذا ما يريده الله.. أشعر أنه يجب أن أمر بتجربة الكيماوي.. بكل ألمها وقسوتها.. كجزء من رحلتي في الطريق إلى الله..

فاجأتني إجابته..

– لماذا تظنين أن الله يحتاج لأن «يفركك بليفة خشنة» ليطهّرك؟.. لماذا تظنيّن أن عليك أن تقاسي الكيماوي لتكوني أقرب لله.. لتلمعي وتضيئي وتنشري نورك حولك؟.. أنت لؤلؤة.. ولا تحتاجين لهذا «الدعك» لتضيئي..

أتفق معك أن الله يريدنا أن نأخذ بالأسباب ولا نتواكل.. وأن أخذك للكيماوي لا بد منه لتكوني قد عملت ما يجب عليك في محاربة هذا الورم.. لكن.. ألا يستطيع الله أن يهوّنه عليك فيكون برداً وسلاماً؟!!

– بلى .. ولكن..

– اسمعي.. أنا دائماً أنصح مرضاي أن لا ينظروا للكيماوي كمصيبة ستنزل عليهم.. كسمٍّ يجب عليهم تجرّعه.. كعدّو.. سيهلك أجسامهم ويسلبها البهجة والصحّة.. فهو في النهاية.. صُنع ليساعدك.. ليقضي على الورم.. فهلا استقبلته وأنت شاكرة لله أنه أوجد هذا الدواء وجعله سبباً للشفاء..

كانت تلك أول مرة أسمع فيها هذه الطريقة في التفكير.. كانت كل فكرتي عن الكيماوي أنه جزء من البلاء الذي يجب أن أصبر عليه وأتجرّعه رغم ألمه..

– استقبلي الكيماوي بفرح.. بل وتحدثي إليه.. قولي له إني سعيدة أن الله سخرّك لي.. وأنا أسألك بقدرة الله عليك أن تدخل جسدي فتفعل ما صُنعت لأجله.. فتقضي على كل خلية سرطانية مؤذية.. وأن تدع جسدي ولا تمسه بسوء.. وأن لا تمس ابنتي بسوء.. فأنا مأمورة وأنت مأمور، وكلنا بأمر الله نعمل..

كان يتكلم وأنا أتذكر قصة قديمة سمعتها عن عقبة بن نافع، إذ دخل إحدى الغابات خلال فتح أفريقيا فوجدها ملئت سباعاً فحادثها قائلاً.. «نحن جيش محمد بن عبدالله.. أتينا لنعبّد الأرض لله.. إني أسألكم بالله ربي وربكم أن ترحلوا عنا ولا تؤذونا». فرأى الناس الأسود والسباع تحمل صغارها في فمها وتغادر حتى عبر هو وجيشه..

تعجبت أن أسمع هذا المعنى العميق من الامتنان لله والتوكل عليه واستبدال الطاقة السلبية المقيتة بطاقة إيجابية متفائلة .. أن أسمع هذا من يهودي.. وحزنت لكل مريض سرطان.. غاب عنه هذا المعنى.. استقبل الكيماوي بعين دامعة، وكأنما يُساق إلى الموت سوقاً..

رسائل ربانية

ربنا لا يعجزه شيء.. لا يعجزه القضاء على حفنة من الخلايا الضعيفة التي لو رأيتها في المختبر لـ «فعصتها» بيد واحدة. لا يعجزه أن يقول لها «زولي فتزول» كما قال لها «كوني» فكانت..

لكن السؤال هنا ليس سؤال قدرة بل سؤال حكمة.. هل القضاء عليها هو الخير في الدنيا والآخرة؟.. ماذا أفعل ببقية العمر إن عُمّرت.. أم أني أريد المزيد من الأيام والأسابيع في الحياة فحسب.. (وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ) أي حياة.. حياة خواء لا معنى فيها ولا إنجاز ولا عطاء ولا نمو..

فإن كنت أريد أن أسأله الشفاء وطول العمر.. فعليَّ قبلها أن أسأله أن يجعلني في كل يوم يمدُّ فيه من عمري أحبَّ إليه وأقرب منه وأنفع لعباده.. وإلا فالرحيل هو الخير الأكبر..

لعل رسالة الرب الرحيم من كل هذا.. أَمتي.. أنتِ في الطريق الخطأ.. فأعطيتك هذه الوقفة.. فإما أن تصححي المسار وتسيري في الطريق الذي خلقتك له. فأزيل عنكِ البأس وأمدّ في عمرك لتستمرّي في القرب والترقّي حتى تلقيني.. وإن لم تستطيعي.. وكانت الغشاوة على عينيك كبيرة فلم تري الطريق.. فتعالي إليّ.. ويكفيك تيهاً.. فقد طهّرك المرض من ذنوبك، ورحمتي تسعك.. ولا تستمرّي في حياة التيه التي لا تليق بك..

لا أملك إلا أن أشعر أن الدعاء بالشفاء وطول العمر.. والإلحاح والبكاء من أجلهما من ضيق الأفق.. فالمرض جاء لحكمة.. أبدلاً من أن أنشغل بالحكمة.. أنشغل بالسؤال أن يرفع الله عنّي المرض.. كالطفل الذي تحرمه أمه الحلوى لتعلّمه شيئاً.. فيبقى لساعات يبكي ويلّح.. «أريد الحلوى.. أريدها».. ولا يفكر لدقيقة لماذا حرمته.. وماذا تريد منه.. ولو فعل لأعطته كل حلويات الدنيا ولم تبخل عليه بشيء..

أمي من أكثر النساء اللاتي عرفتهن قوة.. هي بصدق امرأة حديدية، ملئت إيماناً.. كنت أخشى عليها من تلقّي الخبر.. فإذا بها تفاجئني على الهاتف بردّها.. «اللّه لطيف بعباده».. واللطيف إذا قدَّر لطف..

قصصت عليها يوماً بعد ما جاءتني لأمريكا ما قرأته من أن النساء المصابات بالسرطان يرين أصعب ما في التجربة كلها.. أصعب من التشخيص والجراحة والإشعاع.. يرين الأصعب، فقدانهن لشعرهن لكونه رمز الأنوثة فيهن..

أخبرتها بذلك فقالت: نعم ولكنها فترة مؤقتة وكل شيء بعدها يعود خيراً مما كان.. شعرت أنها لم تفهم خوفي.. وأنا مقبلة على العلاج الكيماوي بعد أيام، وبعد أسبوع على الأغلب سأكون أنثى من غير شعر..

قالت بعملية: هناك حلول.. دعينا نبحث عن الحلول.. شعر مستعار.. قبعات.. مناديل للرأس.. رموش صناعية.. رسم للحواجب.. لكل مشكلة حل.. أخذنا نبحث معاً على الإنترنت ونتضاحك على بعض الحلول غير المنطقية.. ثم تركتها لدقائق وعدت..

وجدتها تمسح بسرعة دموعاً ملأت وجهها.. كانت تتجلد من أجلي.. كانت تُهوّن عليَّ الأمر حتى لا تزيد ألمي..

وأنا التي ظننت أنها لقوتها لا تشعر بي..

رفساتك يا صغيرة هي جرعات أمل ورسائل بهجة ترسلينها لي من داخل أحشائي في وقت أنا أحوج ما أكون فيه لرسائل البهجة والأمل..

من العجائب أني في هذه الفترة ومع كل دواعي القلق، حتى أني لا أعلم إلى أين انتشر الورم وفي أي مرحلة هو، لعدم التمكن من إجراء الأشعات أنني أكثر اطمئناناً وأقل قلقاً مما كنت قبل السرطان..

فسبحان من منّ عليَّ بالثقة فيه وفي كل ما يصنع ويدبّر حتى صرت أرى كل دواعي القلق وتخويف الأطباء، ومشاكل الدنيا، حقيرة صغيرة.. وأرى كل الناس مهما عظمت مكانتهم وقدرتهم «الظاهرة» في التأثير على مستقبلي وحياتي مجرد «عبيد».. مجرد أقزام صغار لا يتحركون ولا يفعلون إلا بإذن سيّدهم، رب العزّة والجلال..

فعلام القلق؟.. والأمر كله له وإليه.. وعلام التعلّق بالناس.. أعطوا أم منعوا.. ما دام هو وحده مالك خزائن كل شيء.. الصحة.. الرزق.. العلم.. السعادة.. كلها خزائنه وكلها ملكه وحده..

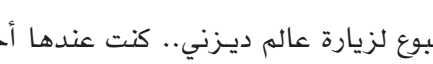

قبل أشهر كنت في إجازة لمدة أسبوع لزيارة عالم ديزني.. كنت عندها أحمل الجنين.. وأحمل السرطان.. ولا أعلم بكليهما.. لم أحمل همَّ شيء، وكان كل ما أفكر فيه هو إلى أي الحدائق سنذهب اليوم، وماذا سنلعب بعد هذه اللعبة..

كم هو محدود علم الإنسان!!

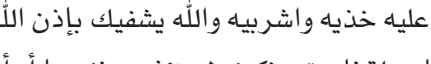

ما الذي يدعو سيدة لا أعرفها ولا تعرفني أن تأتي بيتي طارقة الباب ومعها زجاجة ماء وتقول: «يا ابنتي هذا زمزم مقروء عليه خذيه واشربيه والله يشفيك بإذن الله».. ما الذي يدعوها لذلك وزمزم في أمريكا عملة نادرة.. فكيف لم تؤثر به نفسها أو أحداً من أقربائها وأحبائها.. سبحان من أنزل الرحمة والمودّة في قلوب العباد.

منتجع الجبل والخدمات المميزة

في الطريق لولاية مجاورة يقام تجمّع سنوي لمرضى السرطان لمدة ٣ أيام..

زوجي متوجس شراً.. وأنا كذلك «بعض الشيء» فقد وجدت إعلان هذا التجمع في غرفة الانتظار بالمستشفى «عطلة نهاية الأسبوع في منتجع على الجبل.. كل التكاليف من سكن وأنشطة بالمجان لمرضى السرطان».. وحين سجلت بالموقع لم يطلب مني أي إثبات بأني مريضة.. وتمّ إرسال عنوان الفندق وجدول الأنشطة.. لم نعتد أن نرى خدمات مجانية في أمريكا من قبل.. وخشينا أن يكون الموضوع «مقلب».. وأن يكون الفندق عبارة عن مخيمات في العراء.. أو أكواخ خشبية تملؤها الصراصير.. لكننا ذهبنا ونحن نتحسس بطاقاتنا الائتمانية في جيوبنا لنحجز في أقرب فندق إن لزم الأمر..

بهرنا الجمال على الطريق.. فالمدينة التي اختاروها هي مدينة صغيرة على جبل ضخم أخضر.. قليلة السكان والضوضاء.. الأنهار تجري من تحتها من كل جانب..

وصلنا ففوجئنا بمواقف الفندق.. متطوعون ينظمون وقوف الزوار الكثر بالمواقف، ويستقبلون الجميع بابتسامات عريضة..

الفندق بدا أفخم مما كنا نتخيّل في مدينة صغيرة كهذه.. وغرفتنا المجانية كانت جناحاً كاملاً مطلاً على الجبل الأخضر.. أكل هذه الرفاهية توفر لمئات المرضى الذين حضروا هذا التجمع من تبرعات المتبرعين؟!!..

ثم نزلنا لبهو الفندق حيث صالة العرض.. وتبين لنا من أين كل هذا.. الصالة الضخمة مليئة بالطاولات للعرض والإعـلان عن منتجات عشرات من الشركات المساهمة.. في النهاية مريض السرطان هو زبون ويجب إرضاؤه..

بهرت حقاً بكمّ الخدمات والمنتجات المتوفّرة لمرضى السرطان.. المستشفيات تعلن عن أقسام الأورام لديها وتتباهى بجودة الخدمة وتتنافس لكسب الزبائن..

شركات الطبّ البديل تعرض خدماتها وتوثقها بالأدلة العلمية عن العلاج بالإبر الصينية واليوجا والماء والتاي شي وغيرها مما لم نسمع عنه في حياتنا قط..

دورات طبخ في «المطبخ المقاوم للسرطان» لتعريف المرضى بالأغذية المقاومة للسرطان.. ملابس وقبعات وإكسسوارات لمرضى السرطان بكل الأشكال مع عبارات مشجعة..

منتجات تجميل وعناية بالبشرة وأخصائيو تجميل متخصصون للعناية بمرضى السرطان خلال فترة الكيماوي وتجهيز كل ما يلزم من شعر مستعار ورموش مستعارة ورسم للحواجب..

ملابس داخلية بكل الأشكال والألـوان المبهجة (بل ولباس سباحة «بكيني») للمريضات بعد استئصال الثدي..

ومن أكثر ما يثير العجب كان هناك (نادي) للعلاج بالخيول.. حيث علاقة المريض بالحصان لوحدها (دون تدريب الركوب) تكفي كسبب للشفاء..

نتفرّج على المعروضات بفم مفتوح ونحن نتحسّر على محدودية المشاريع في بلادنا حيث الجميع يكرّر نفس الأفكار.. مشغل.. خياطة.. تجهيز عرائس.. أو مول.. ويتجاهلون احتياجات فئات لا حدّ لها في المجتمع يمكن أن تكون مصدراً لربح وفير وتقديم خدمة مميزة.. فلا أحد لديه الجرأة ليبدأ مشروعاً جديداً يفيد به ويستفيد..

وبينما نحن نتفرج، طرقت أسماعنا موسيقى مكسيكية.. قادمة من حديقة الفندق.. فخرجنا لننظر فإذا هو درس (كلاس) مجاني في «الزومبا» (وهي رقص مكسيكي يستخدم كرياضة لرفع مستوى الطاقة وجلب الصحة).. وإذا الراقصون جميعاً من مرضى السرطان وبأعمار تقارب السبعين.. ولكنهم يرقصون.. ويستمتعون.. ويعيشون.. لأنهم أُعطوا الفرصة لحياة طبيعية ولم يغلق عليهم الباب ككائنات انتهى تاريخ صلاحيتها ولا تصلح إلا لاستقبال الشفقة والدعوات..

لماذا.. وأنا حامل

أحاول أن أفهم الحكمة.. لماذا حدث ما حدث وأنا حامل؟.. لماذا عقّد الحمل كل خطوة في التشخيص والعلاج، حتى أننا تقريباً صرنا نعالج الورم «عمياناً» بغير أن نعلم إلى أين انتشر وفي أي مرحلة هو لنتجنب أي إشعاعات قد تضرّ بالجنين؟.. أتأمل وأذكر.. كيف بدأ الحمل..

أتذكر دموعي حين اكتشفت أني حامل.. وحزني العميق الذي قد يصل لحدّ الغضب.. جاء الحمل في هذا الوقت غير المناسب وأنا في بداية سنوات الاختصاص.. والمناوبات كثيرة.. وأنا بالكاد قادرة على العناية بابني ذي الثلاث سنوات الذي يمرُّ اليوم واليومان بغير أن أراه أحياناً بسبب ضغوط العمل..

رضيت بهذا الحمل على مضض.. وقلت في نفسي (لعله خير).. لكني لم أزل أخبر الأهل والأصدقاء بخبر حملي.. وكأني أحمل خبراً يستحق التعازي.. وأنتظر من الناس المواساة «أعانك الله، ما أكبر مصابك».. وهكذا كان غالباً رد من أخبر.. «قدَّر الله وما شاء فعل، ولاحول ولا قوة إلا بالله».. كنت أدعو الله وأنا محزونة أن يصبّرني ويعينني.. لم أر النعمة في خبر الحمل.. لم أستشعر الفضل والمّن بكوني والجنين بصحة وعافية.. لم أشهد الفضل وأظهر الفرح بعطيّة عظيمة من الله.. تعاملت مع الطفل الآتي كمصيبة تقف في وجه مستقبلي المهني.. مصيبة يجب الصبر عليها وتحملّها.. وبقيت بهذا الإحساس حتى جاءت المصيبة الحقيقية.. بل حتى تجلّت.. النعمة الحقيقية..

سبحان مغيّر الأحوال.. بين عشية وضحاها، جاء خبر السرطان.. فتلقيته برضا أكبر مما تلقيت به خبر الحمل من قبل.. جاء خبر السرطان.. فلم أشعر أنه سيحول بيني وبين مستقبلي المهني، بل شعرت أنه سيغيّر دفة حياتي.. ويصحح المسار.. في الدنيا.. وفي الآخرة..

جاء خبر السرطان، فصار المستقبل المهني والنجاح الوظيفي آخر همّي، وصرت أنظر لما وراء ذلك.. ما الهدف من وراء العمل والدراسة والوظيفة.. للسير لله.. والوصول إليه.. وجلب النفع لعباده.. وجلبهم إليه..

جاء خبر السرطان، فاكتشفت أن القلق على الغد حماقة.. فلا أحد يعلم أيعيش للغد أم لا.. وأن حمل الهمّ.. والتباكي لثقل الحمل من قلة التوكل على رب كريم عظيم قادر.. لا يزيد الحمل إلا ويقوي الظهر..

ماذا لو كان مرضي نفسياً؟

الحمد لله.. مرضت فأحاطني كل من أعرف بالتعاطف والدعاء والمؤازرة وبجرعات الأمل في الشفاء..

لكن مرضى آخرين يعاملون معاملة مختلفة تماماً في مجتمعنا.. لنتخيل فقط.. ماذا لو كان ما أصبت به هو أحد الأمراض النفسية.. لنقل بالاكتئاب الحاد.. مع بعض الهلاوس severe depression with psychosis..

ماذا لو اكتأبت وانعزلت.. وفقدت القدرة على الذهاب إلى العمل (بدون أي سبب عضوي).. ثم أمضيت أيامي في السرير مع أفكار سوداوية.. تحولت مع الأيام إلى ضلالات لا تمت للواقع بصلة.. ككوني مسؤولة عن موت أحد.. أو خراب البلد..

ماذا ستكون ردة فعل الناس.. والأهل والأصدقاء.. ورؤساء العمل.. رأيت هذا يحدث بعيني مع أحد الأصدقاء، فلست أتخيل.. لكني أظن أن باستطاعتكم أن تتخيلوا..

أما المقربون الأحباب.. فسيبدؤون فوراً بالبحث عن سبب هذه النكسة.. فهي بلا ريب عين أو سحر أو مسّ.. وسيسعون بكل جهدهم لإبقاء المريض محاطاً بالشيوخ للقراءة عليه ونزع هذا «العفريت» منه..

وأما الأبعدون.. المعارف والزملاء.. فلن يملكوا إلا أن يُحمِّلوا المريض مسؤولية مرضه.. «عليك بالتفكير الإيجابي».. «كن رجلاً وتحمّل.. ولا تقل أنا مكتئب!».. «هو ضعيف الشخصية ولذلك لم يتحمل متاعب الحياة العادية» «هذا كله من البعد عن الله.. عليك بالقرآن».. ويستمر الجميع بالفلسفة وتحميل المريض الذي يعاني أصلاً تأنيب الضمير (كأحد أعراض مرض الاكتئاب) مزيداً من الهمّ.. وينسى الجميع أن الاكتئاب الحاد (major depressive disorder) كما هو الفصام (Schizophrenia) كما هو الاضطراب الوجداني ثنائي القطب (Bipolar Affective disorder) وغيرها، إن هي جميعاً إلا أمراض.. لا تختلف عن سرطان الثدي الذي أصبت به شيئاً إلا أنها تهدد جودة الحياة (ما لم ينتحر المريض من شدة المعاناة) بينما السرطان يهدد استمرارها.. وهي أكثر تعقيداً وتشابكاً في مسبباتها التي تضمُّ أسباباً وراثية وبيولوجية وبيئية.. ومريضها بحاجة أشدّ لمساندة من حوله لا لومهم..

فهلا رحمنا مرضانا النفسيين بشيء مما نرحم به مريض السرطان..

كيف تأكل فيموت السرطان جوعاً؟!!

ما الذي يحدث لنا اليوم؟.. في كل يوم أسمع عن شخص جديد حولي.. يصاب بالسرطان.. فلان في العشرين أصيب بسرطان الخصية.. فلانة في الواحد والعشرين تصاب بسرطان اللسان.. فلانة ذات العشر سنوات تصاب باللوكيميا.. وفلان ذو الثماني سنوات يودع الحياة بسبب سرطان الدماغ.. ما الذي يحدث؟.. ولماذا لم تكن الأمور كذلك قبل ٥٠ سنة؟.. ولماذا الأمور آخذة في السوء أكثر وهذا الوباء يصطاد الأهل والأحباب واحداً بعد الآخر..

في محاضرة ممتازة من الـ Ted TALK يقول الطبيب وليام لي: إننا نقول للناس عليك أن لا تأكل ولا تفعل كذا لتحافظ على صحتك وتمنع الأمراض.. لماذا لا نأخذ طريقة أخرى ونخبر الناس ماذا عليهم أن يأكلوا ليحاربوا ويمنعوا السرطان ويحافظوا على صحة ممتازة.. ففي النهاية طعامنا يمكن أن يكون مضاد السرطان الذي نتناوله ٣ مرات في اليوم.

وأنا أتفق تماماً مع هذا التوجه.. فالحرمان دوماً ثقيل على نفس الإنسان.. ما إن تقرّر التوقف عن أكل الوجبات السريعة تجد نفسك تفكر في كل مطاعم الوجبات السريعة وتشتاق لها، وخلال ساعات تقرر أن تأخذ وجبة كبيرة اليوم.. على أن تبدأ الحرمان من الغد.. وهكذا.. فالحمية دوماً تبدأ من الغد.. الغد الذي لا يأتي أبداً..

كل خلية سرطانية تتكون في جسد أيّ منا (حتى غير المصابين بالسرطان) تحتاج لأوعية دموية توصل لها الغذاء لتنمو وتتكاثر وتتحول لسرطان قاتل.. وهناك أطعمة نستطيع تناولها يوميا أثبتت الأبحاث (وهنا أتكلم كطبيبة عن أبحاث علمية حقيقية لا خرافات) أنها قادرة أن تمنع عملية إنشاء أوعية دموية جديدة angiogenisis لتغذية السرطان الوليد وبالتالي تموت الخلايا السرطانية جوعاً.. إليكم القائمة الذهبية لنضيفها لمائدتنا كل يوم:

- العنب الأحمر، الفراولة، التوت الأسود والكرز.
- البرتقال، الليمون، التفاح.

- الكركم، جوزة الطيب.
- الشاي الأخضر والإيرلجراي.
- الثوم.
- الطماطم.
- زيت الزيتون.
- الشكولاته الداكنة.
- البقدونس.

هذه القائمة التي تم دراستها على خلايا الأوعية الدموية في المختبر، وأثبتت أن كميات منها يستطيع الإنسان تناولها بسهولة، قادرة على منع تكاثرها بنسبة تصل لـ٨٠٪ عند إضافة مستخلص أكثر من نوع مرة واحدة (تناول أنت أكثر من نوع من القائمة في اليوم الواحد). هذا لا يعني أبداً أن هذه القائمة هي الوحيدة لعلاج ومنع السرطان، بل نحن نتحدث هنا عن طريقة واحدة، وهي منع وصول الدم المحمل بالغذاء للخلايا السرطانية. وهناك أطعمة كثيرة تمنع السرطان بطرق أخرى كمضادات الأكسدة والأطعمة التي تساعد الكبد على إزالة سموم الأغذية السيئة التي نتناولها (كالمواد الحافظة والمنكهات والألوان الاصطناعية).. وأنا أشجع قارئي على البحث عن هذه الأغذية وإضافتها لوجباته اليومية، ليس فقط لينعم بصحة أفضل، بل ليؤدي أمانة سيسأله الله عنها يوم القيامة.. أمانة الجسد.

للاطلاع على المحاضرة كاملة، متوفرة على اليوتيوب بعنوان:

Can we eat to starve cancer?

ربيعي وربيعها

أول ما يخطر ببالك حين تراها أنها لا تزال جرداء.. لا تزال خشباً وأغصاناً.. لم تتفتح وتزهر كقريناتها.. ولم تبدأ البراعم بالظهور بعد.. لكن.. إذا دققت النظر.. رأيت الجمال الكامن.. والعطاء الكامن.. رأيت جذعاً أقوى من كل قريناتها.. وغصوناً غنية قوية متشابكة.. توحي بحكمة كبيرة وتجارب كثيرة..

رأيت جمالاً أخاذاً متخفياً في مظهرها الجرد.. رأيت عمقاً للجذور يجعلها أكثر ثباتاً من مثيلاتها..

رأيت جمالاً لا يوصف ينتظر أن يأتي وقته ليتفتق زهراً وخضرة وثمراً وعطاء.. ولكن يبدو أنه لم يحن الوقت بعد.. ترى هل هي تغار من قريناتها.. الأقل غصوناً وتشعباً.. الأقل عمقاً وأقل جمالاً لكنهن جميعاً أزهرن وأينعن، بينما هي تنتظر..

لا أظن.. لأنها تعرف حقيقة نفسها.. وتعرف ما خبأ الله لها من عطاء كبير دفين.. وتعرف أن الزمن في عين الله لا وجود له..

ولا زلت معها أنتظر أن يحلّ الربيع.. ربيعها هي.. وربيعي أنا.. ربيعنا الذي يختلف عن ربيع باقي المخلوقات لنزهر ونثمر..

ولكل منا ربيعه.. ولكننا نستعجل..

الافتراضات المزعجة

تجاوزت الحزن بسبب المرض منذ الأيام الأولى من التشخيص، وكانت الأمور بفضل الله أهون كثيراً مما يظن من يراها من الخارج.. و صرت خلال الأشهر التالية أعيش مع التحديات يوماً بيوم.. فلا أقلق على مستقبل ولا آسى على ماض..

أما ما ينغص عليَّ هذا الطور من الطمأنينة فهو عادة.. زيارة المستشفى.. كلما قابلت شخصاً جديداً (ممرضة أو طبيباً مقيماً أو طالب طب أو تقنياً).. كانوا يشعرونني بالمأساة.. هذا تدمع عينه.. وتلك تتأثر ويبدأون في السؤال عن تفاصيل كثيرة أجيب عنها بصدر رحب، لأني أرى اهتمامهم الصادق.. ثم أستمع للتعليقات..

«أوه ما تعرضتِ له كثير جداً على شخص واحد».

«٣ شهور من الكيماوي.. يا إلهي ما أصعب ذلك.. تحاربين السرطان وتعتنين بطفل وتحملين طفلاً آخر، ثم الولادة والعناية بمولود جديد.. لا بد أن تكوني تحت ضغط لا يحتمل».

ورغم شكري الحقيقي لاهتمامهم وإنسانيتهم، إلا أني أشعر بالتعجب من افتراضاتهم التي لا تدع أي احتمال لأن تكون الأمور سلسة وجيّدة وعلى ما يرام ونفسيتي ممتازة وحياتي شبه طبيعية.. ما يسوؤني هنا هو الافتراض بأني يجب أن أكون قلقة.. غاضبة.. ناقمة.. وتعيسة..

ويسوؤني من نفسي أني قليلة الكلام، فلا أشرح لهم وضعي الحقيقي بل أتمتم مبتسمة «أنا على ما يرام» وأدعهم وافتراضاتهم..

ووصلت مريم

ووصلت مريم.. ووصل معها الخير الكثير.. والرحمة والرزق من ربّ كريم..

جاءت سليمة معافاة وخالفت توقعات الكثيرين لتثبت أن الله أكبر من كل التوقعات وأنه لا يعجزه شيء..

جاءت بعد أشهر كنت أحدثها فيها قبل أن أراها.. إذ شاركتني المرض والجراحة والكيماوي.. وكانت معي خير معين..

كانت رفساتها من داخلي جرعات أمل بحياة جديدة تخرج إلى حياتي قريباً.. كانت جرعات أمل، أنا في أشدّ الاحتياج إليها في وقت كانت كل الرسائل التي تأتيني من جسدي رسائل مؤلمة حزينة..

ولكن بقي في القلب بعد وصولها غُصَّة.. إذ أشعر بالتقصير في حقها لأني لا أقدر على إرضاعها (فلم أرضعها إلا أسبوعين عدت بعدهما للكيماوي، فتوقفت عن الرضاعة)..

فالرضاعة ليست مجرد مصدر غذاء صحي ومناعة وأجسام مضادة.. بل هي علاقة وارتباط وتواصل لا يوصف..

فرغم حبي الشديد لمريم إلا أني أذكر جيداً أن ارتباطي بأخيها الذي أرضعته لوحدي (بغير استعانة بحليب صناعي) كان أكبر وأشد.. فالرضاعة الطبيعية تعني أن تبقى الأم مع طفلها أربعاً وعشرين ساعة في اليوم وسبعة أيام في الأسبوع بلا انقطاع ولا انفصال.. هكذا أرادها الله.. حيث الارتباط الجسدي يوصل دفء الأم لطفلها.. وحبّ الرضيع لأمه.. وحيث تتلاقى الأعين لساعات وساعات يجعل لغة الأعين هي اللغة الرسمية في علاقة هي أقوى العلاقات في الكون.. حيث يفهم الاثنان بعضهما من غير حاجة للكلمات..

لم أزل أعجب لكل أم تحرم نفسها هذه النعمة العظيمة (وإن بدت مرهقة متعبة).. وتضحي بأجمل ما في الأمومة من إحساس.. فتلقي بولدها للخادمات.. لتقضي وقتها مع الصديقات والقريبات..

في المستشفى.. قل خيراً أو اصمت!!

من أصعب الفترات التي مرت عليَّ، كانت فترة تنويمي بالمستشفى للولادة.. رغم أنها كان من المفروض أن تكون فترة سعيدة، إذ رزقني الله فيها مريم صحيحة معافاة بعد أن شاركتني الداء والدواء خلال أشهر.. إلا أن الطاقم الطبي استطاع أن يكدّر تلك الفرحة بغير أن يدري..

في كل يوم تدخل عليَّ وجوه جديدة من ممرضات ومساعدات الممرضات والأطباء المناوبين.. كلهم يقرأ ملفي قبل أن يدخل.. ثم يأتي ليسمعني بعض التعليقات التي يطلقونها بكل حسن نية.. «ما أسوأ حظك»، «هذا كثير عليك جداً.. هذا كمٌّ من المصائب كثير جداً على شخص واحد!!» «it sucks» ولا أجد لها ترجمة بالعربية.. «أوه لقد أرضعت طفلك الأول، وكان المفروض أن يحميك هذا من سرطان الثدي.. هذا ليس عدلاً!!» وعليَّ أن أكرر عشرات المرات في اليوم أن الأمر ليس بهذا السوء وأني بخير وأن لله حكمة في كل شيء.. حتى شعرت بالاختناق من رسائلها السلبية في وقت أنا فيه أضعف ما أكون بعد الولادة الشاقة.. فقررت أن أترك المستشفى وإن لم يحن وقت خروجي بعد وغادرت بعد يومين رغم أن المقرر كان خمسة أيام.. لكنهم سمّموا بقائي بسلبيتهم وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً..

أكتب هذه الكلمات الآن وأتذكر تلك الأيام لأرسل رسالة خاصة لزملائي من الأطباء والعاملين بالمجال الطبي..

«قل خيراً أو اصمت!!»

لم أعلق على نفسي لافتة تقول إني طبيبة.. ولم أحرص على أن يعرف كل من أراه في المستشفى أثناء تنويمي ذلك.. فرأيت نموذجاً مخزياً من احترام قرار المريض..

قبل الولادة كان لديَّ بعض فقر الدم بسبب العلاج الكيماوي.. وتناقشت مع طبيب الأورام في الأمر واحتمالية احتياجي لنقل دم قبل الولادة، فأخبرني أني لن أحتاج ما لم يحدث نزيف شديد في الولادة يحتم نقل الدم..

جاءت الولادة وبعدها مباشرة تم تحليل الدم ووجد أن فقر الدم قد ساء قليلاً.. تحدثت مع استشارية الولادة التي لم تر حاجة لنقل الدم حينها.. وجاء اليوم التالي.. لأسمع قرع الباب من مسؤولة سحب الدم: «لديك تحليل».

– ما هو؟

– CBC الذي يتم فيه قياس مستوى فقر الدم.

– حسناً لم يخبرني أحد أن لديَّ تحليلاً، وعموماً فقد فحصناه بالأمس ولا يتوقع أن يكون قد اختلف اليوم، إذ لم يحدث أي نزيف يذكر منذ الأمس، وعليه فإني أرفض التحليل.. شكراً لك..

بعد دقائق.. جاءت الطبيبة المناوبة.. لتقنعني بالتحليل، فأخبرتها أنه لا يتوقع تغيير عن نتيجة الأمس وأنه لن يترتب أي شيء على النتيجة، حيث إني لا أنوي أخذ دم لأني أشعر أني بخير ولا أشعر بأي ضعف أو خفقان (أعراض فقر الدم الحاد).. وبالتالي سيكون التحليل مجرد إهدار للمال والوقت..

– وهنا بدأت الطبيبة المناوبة أسلوباً عجيباً في الإقناع وهي لا تعلم أني طبيبة..

– بداية بدأت بمغالطات طبية «أمس أخذت الكثير من السوائل عبر الوريد وربما تكون قد حسنت نتيجة الهيموجلوبين حينها، أما اليوم لم تأخذي أي سوائل فربما يكون المستوى قد انخفض» (علمياً هذه المعلومة خاطئة ومعكوسة، فالكثير من السوائل تخفّف الدم أكثر وتجعل نتيجة فقر الدم أسوأ لا أفضل).. لم أشرح لها خطأها حتى لا أحرجها وقلت لها إني لن أعمل تحليلاً لمجرد إرضاء (الفضول) طالما أنه لن يترتب عليه أي شيء في العلاج، حيث إني لا أنوي أخذ دم..

هنا عادت إلى (التخريف) قائلة إن فقر الدم قد يؤثر على قلبي ويجهده ويسبب مشاكل ومضاعفات..

– «هذا يا عزيزتي لمن لديهم مشاكل مسبقة في القلب ولكبار السن.. وليس لامرأة في الثلاثين وبقلب سليم.. كما أن فقر الدم حدث خلال شهور من تناول الكيماوي مما سمح للجسم بالتأقلم على الوضع.. ونحن لا نعالج نتائج التحليل بل نعالج (المريض) وأنا أمامك لا أشعر بإرهاق ولا خفقان وأشعر أني أفضل مما كنت أثناء الحمل..

فلما لم تجد رداً التفتت إلى زوجي وهي تعلم أنه طبيب تخدير، وقالت:

– يا دكتور أقنعها من فضلك.. أخبرها أنه «من وجهة نظر التخدير» هذا يضر بصحتها..

أغاظتني الكلمة تماماً.. أن تقحم زوجي في قرار يتعلق بي وتتفلسف قائلة «من وجهة نظر التخدير» وليس للتخدير أي علاقة بالأمر. فابتسمت وقلت..

– «على فكرة.. أنا كذلك طبيبة وأعرف كيف أتخذ قراري جيداً».

عندها فقط.. ابتلعت لسانها وكفت عن الإلحاح والفلسفة.. وأنا أتساءل.. ماذا عن المرضى الآخرين.. أليس لهم حق الاختيار.. علماً بأن الطب فيه الكثير من المناطق الرمادية التي يختلف فيها الأطباء وتختلف فيها نتائج البحوث.. فلِمَ يفرض الطبيب رأيه على مريضه ويضيّق عليه..

وما يحدث في بلادنا أشدّ وأسوأ.. فالطبيب عندنا يعتبر أن كلامه قرآنٌ منزل وأنه ليس للمريض الحقّ في أن يناقش ولا يفهم ولا حتى يسأل.. ومن باب أولى فليس له الحقّ أن يعترض.. ومن اعترض عندنا «انطرد» وكم رأيت من أطباء أثناء دراستي بالكلية يطردون المريض من العيادة طرداً لكثرة سؤاله أو لقوله إنه سمع رأياً مختلفاً من طبيب آخر..

ولكن الممارسة التي رأيتها في أمريكا من أغلب الأطباء الذين تعلمت منهم ومن الاستشاريين المسؤولين عن علاجي (غير الأطباء المناوبين قليلي الخبرة) كانت تتلخص في أن دور الطبيب هو أن يشارك المريض في المعلومات التي لديه ويشرح له كل اختيارات علاجه ومميزات كل منها وإيجابياته.. ثم يذكر رأيه الشخصي وعلى أي أساس بنى هذا الرأي (بلا تحيّز وبموضوعية تامة) ثم يترك للمريض حق الاختيار ويعطيه الوقت الكافي ليتخذ قراره..

هكذا يكون احترام حرية الإنسان، فطالما الجسم جسم المريض.. فالقرار في النهاية.. قراره.

إنسان مميز.. وطبيب إنسان

أكتب الآن خلال ساعات تلقي العلاج الكيماوي.. قررت أن أكتب عن أحد الأشخاص الرائعين الذين أسعدني المرض بالتعرف إليهم.. عن طبيب الأورام الذي تولى علاجي..

شخصية رائعة.. أتمنى لو استنسخ منه مئات النسخ أوزعها على مستشفيات بلادنا ليسعد به مرضانا كما سعدت به.. ولعل الكتابة عنه تكون وسيلتي لهذا الاستنساخ.. ليعلم زملائي في الطب كيف يمكن أن يكون الطبيب إنساناً..

- يوم التقينا لأول مرة.. يوم تشخيصي.. بدأ بالتحدث بالعربية (اللبنانية) المكسرة ليقول إن والديه من لبنان لكنه لا يعرف من العربية إلا كلمات.. بدأ علاقتنا بإيجاد رابط مشترك يجمعنا ليقول: أنا أقرب لك من مجرد طبيب..

- في كل مرة يقابلني فيها يدخل للغرفة مبتسماً وهاتفاً.. «الدكتورة نور البارا!.. سعيد برؤيتك».. حفظ لي مكانتي بمناداتي بالدكتورة.. أظهر سعادته برؤيتي وكأني مريضته الوحيدة والمفضّلة.. ما أجمل أن نحفظ مكانة مرضانا. فلا يصح أن ننادي الجميع بـ «يا عم» أو «يا خالة».. هناك من نداؤه المفضل هو «أبو فلان» أو «أستاذ فلان» أو «دكتور فلان» وحفظ مكانة المريض وإظهار الاهتمام والتقدير لمهنته يشعره أن المرض لم يسحب منه مكانته ومؤهلاته..

- في كل مرة يقابلني يكون لديه شيء جميل يقوله.. «تبدين بشكل ممتاز» «أنت معجزة.. لا تؤثر فيك الأعراض الجانبية للكيماوي أبداً».. «واو، ما أخف حركتك رغم أنه لم يمر على عمليتك سوى أيام».. أنا مندهش من سرعة التئام الجرح لديك» «الجميع يخبرونني أنك تبدين رائعة ولا أحد يتخيل أنك على الكيماوي».. مجاملة المريض بمثل هذه العبارات لا تستغرق الكثير من الوقت، ولكنها تعني الكثير بالنسبة له.. فهذه الكلمات تسعده.. تشعره بالثقة.. تقوّيه.. وجميعها أحاسيس هامة للشفاء.. فكما قال ابن سينا «الوهم نصف الداء والاطمئنان نصف الدواء».

- لديه قدرة عجيبة (وهذا أكثر ما يعجبني فيه) على تجنب الحديث بأيّ كلمة سلبيّة (الموت، عودة المرض، المضاعفات) واستبدالها بكلمات إيجابية.. تخيّل كم يكون هذا صعباً ومحتاجاً لفن حقيقي عندما يكون المريض مريض سرطان، وفي مرحلة متقدمة وهو مع ذلك ملتزم بالشفافية ولا يحاول التغرير بالمريض ولا إعطائه آمالاً كاذبة.. مثلاً..

بدلاً من أن يقول «الورم ضخم جداً وحجمه ٧ سم» يقول «رغم كبر حجم الورم إلا أنه ليس ملتصقاً بالجلد ولا بالقفص الصدري، وهذا جيد جداً»!!

وبدلاً من أن يقول «لا بد من العلاج الإشعاعي وإلا قد يعود المرض» يقول «ثبت بالدراسات أن العلاج الإشعاعي يزيد من نسبة الشفاء التام»..

وبدلاً من أن يقول إن الكيماوي يسبب مضاعفات في أعصاب الأطراف قد تصل لآلام شديدة كالكهرباء يقول «في الأغلب يسبب هذا النوع بعض التنميل، وعند أغلب الناس يكون تنميلاً خفيفاً يزول بمجرد انتهاء العلاج. ومن النادر أن يكون أشد من ذلك».. وهكذا وهكذا.. كل جملة يقولها منتقاة بعناية لعلمه أن المريض يتلقى كل كلمة بمنتهى الحرص ويحفظها ويردّدها ويقتنع بها..

رأيت عدداً كبيراً من الأطباء حتى في أمريكا على عكس ذلك تماماً.. فهم يلقون في وجه المريض كل الأعراض الجانبية والمضاعفات، وأحياناً لا تكون المعلومات حتى دقيقة ولا صحيحة.. كما قالت لي طبيبة الجراحة في يوم التشخيص.. «الحقيقة أشك في قدرتك على الإنجاب ثانية بعد تعرضك للكيماوي» مع أنه لم يكن لديها علم بهذه النقطة، ثم ثبت أن كلامها غير صحيح علمياً، بالإضافة لأنها ذكرت ذلك بأسلوب فظّ وفي وقت غير مناسب على الإطلاق (في نفس ساعة التشخيص).

- لديه درجة عالية من المرونة، فهو لا يطبّق العلاج كما تقول الكتب على الجميع، بل يدرس الأبحاث الجديدة، ويستأذن المريض في أن يأخذ وقته في البحث حتى يصل لخطة علاج تناسب خصوصية كل مريض.. ولأنني لم أكن حالة تقليدية باعتبار الحمل فقد رأيت من مرونته الشيء الكثير.. مثلاً.. عدد مرات الكيماوي التي تنصُّ عليها الكتب والتي أخذتها خلال الحمل هي ٤ وكان يجب أن أذهب للولادة بعد الجلسة الرابعة، مع العلم أنها ستكون ولادة مبكرة في الشهر السابع لأواصل الكيماوي

بعد الولادة مباشرة، حتى لا يكون هناك مدة زمنية طويلة بغير علاج، مما قد تؤثر على استجابة المرض للعلاج.. فاتصلت به وأبلغته أني أجد صعوبة في تقبل الولادة في الشهر السابع، لأن المولودة ستبقى في العناية المركزة أسابيع وربما تحتاج لتنفس اصطناعي.. فطلب مني مهلة أسبوع ليبحث عن حل.. وقام بالبحث ثم جاءني بالحل.. سنؤجل الولادة ٣ أسابيع وسنملأ الفراغ الزمني بجرعة خامسة من الكيماوي. يعطى فيها أحد العلاجين فقط دون الآخر الذي أثبتت الدراسات أن جرعات إضافية منه قد تؤثر على القلب. وشرح لي كل الخيارات (المعقدة) الأخرى ولماذا استبعد كلا منها.. وأنهى كلامه قائلاً: «لن تجدي هذه الجرعة الخامسة في أي كتاب.. إنما فصلتها تفصيلاً لتلائم وضعك الخاص».. كم يحتاج أطباؤنا لمثل هذه المرونة المبنية على الأبحاث، لا على المزاج الشخصي. وألا يكونوا مجرد (رجل آلي) يطبّق ما في الكتب حرفيّاً بغير النظر في خصوصية كل مريض واحتياجه..

- احترامه الشديد لرأي المريض.. وقدرته على التفاوض معه وإقناعه إذا لزم الأمر.. مثلاً.. قبل العملية رفضت القيام باستئصال الغدد اللمفاوية lymph node dissection بسبب مضاعفاتها الشديدة (انتفاخ شديد في الذراع لا يزول بل يزيد مع السنين) كما رفضت عمل Sentinel lymph node وهو حقن مادة مشعّة في الورم ليروا لأيّ الغدد اللمفاوية تسري المادة المشعّة ثمّ يستأصلونها.. لكوني حاملاً والإشعاع خطر على الجنين.. فلم يقل لي إن رفضي هذا جنون وأنه لم يقم أحد بهذا من قبل..

بل قال «ربما تكونين على حقّ، وربما ليس هناك داع لاستئصال الغدد الليمفاوية في وقت تطور فيه العلاج الكيماوي بما قد يضمن الشفاء للمريض بغير استئصال جراحي، ولكن ليس هناك حالياً أي أبحاث تثبت ذلك.. وستكونين الحالة الأولى التي تقرّر ذلك.. ربما تثبت الأبحاث ذلك بعد ١٠ سنين، لكن حالياً ليست لدينا هذه المعلومة، فلا يمكننا المجازفة.. وأخذ يناقشني حتى وصلنا لحل وسط.. أن أعمل أشعة صوتية على الغدد اللمفاوية فإن وجدناها متضخمة فسأوافق على استئصالها.. وبهذا استطاع أن يقنعني من غير أن يفرض عليَّ رأيه، ومن غير أن يدعني وقراري الخاطئ.

- حين كان عليَّ أن أقرر: هل أستمر في الحمل أم لا؟.. كان صبره عجيباً.. وقد أخذ القرار مني أسابيع.. كل ما فعله هو أن شرح لي الواقع والإيجابيات والسلبيات.. بل وأعطاني الأبحاث التي وجدها في الموضوع وفتح لي باب الأمل قائلاً «لو أردت الاستمرار في الحمل، فأنا على يقين أننا سنصل لحلول تحافظ عليك وعلى الجنين» ثم تركني لأقرر.. لم يضغط.. ولم يستعجل.. ولم يحاول إقناعي برأيه الشخصي.. التزم الصمت وانتظر، وكان ذلك منتهى الحكمة..

- بعد ولادتي وأنا منومة في المستشفى.. فوجئت به يطرق الباب زائراً ويرفع صوته ضاحكاً كعادته «د. البار.. مبروك.. مبروك» جاء ليرى المولودة ويهنئني بالسلامة ولم يكتف بأن يكون طبيب أورام..

لم أكتب هذه المواقف الجميلة.. إلا سعياً لاستنساخ هذا السلوك الطبيّ المميّز لدى أطبائنا الواعدين.. وأنا على يقين أنهم قادرون على الوصول لهذا المستوى الراقي.. وأكثر..

هل أنت مريض؟

أمراض هي أشد من أي سرطان وأفتك بالإنسان.. أمراض تقطع الإنسان عن مصدر الجود واللطف والإحسان.. تلك الأمراض التي ننسى أو نتناسى وجودها.. لأنها ربما لا تؤثر على دنيانا العاجلة.. ونتناسى كم تؤثر على حياتنا الأزلية الباقية..

الجميع يدعو لي ويبتهل.. يسأل الله لي الشفاء من داء قد يقصر العمر.. من ستين إلى ثلاثين.. قد يفارقني عن أحباب أنا مفارقتهم لا محالة، طال الزمن أو قصر. وقد يهدّ جسدي (الفاني لا محالة)..

وكلنا ينسى تلك الأمراض التي تشوّه وتدمّر الحياة الباقية.. الحياة الأزلية.. الحياة الحقة..

كم من مرّة أهمّنا رأي الناس، فكان هو محركنا للعمل أو العطاء، فحبط العمل عند الله وبطل..

كم من مرّة رأينا أنفسنا أكثر صلاحاً أو تميزاً من فلان أو فلان، فهوينا من معراج القرب بغير أن ندري..

كم من مرّة تكلمنا أو قلنا أو «غرّدنا» فأعجبنا ما قلنا وما فعلنا، فمحقت بركة العمل والقول، وصار كالزبد الذي يذهب جفاء..

كم من السنوات قضيناها في علم نظن أننا نخدم به الناس.. والنيّة من ورائه العلو في الأرض لا خدمة الناس.. هل في الناس من هو أشدُّ خسارة ممن يمضي عمره يعمل ويكدُّ ثم يضيّع عمله سراباً حين يلاقي ربّه لمجرد أنه «استمتع بنظر المعجبين إليه»..

ثم تقولون لي إن السرطان مرض خطير..

أين خطر هذه الخلايا المسكينة التي لا تفعل إلا أن تعجّل في رحلة الإنسان لربّه.. أمام خطر هذه السرطانات القلبيّة التي تُضيّع كل خير يبذله الإنسان ويكدُّ لأجله في لحظات.. في خواطر خافتة لا تكاد تحسّ.. فإذا أصلح الناس وأكثرهم علماً وعطاء يضيع عملهم هباء..

حديث لم يزل يخيفني.. أول من تسعّر بهم النار.. عالم وشهيد ومتصدّق.. أما

العالم فيقول: يا ربّ تعلّمت فيك وعلّمت، فيقول له الله: كذبت.. تعلمت ليقال عالم.. وقد قيل.. ألقوا به في النار..

كذبت.. قاتلت ليقال جريء.. كذبت.. أنفقت ليقال جواد.. ألقوا بهم في النار..

هذه رسالة خاصة لكل المبتعثين وطالبي العلم «والشهادات».. الجزء الأول من الحديث يخصنا جميعاً.. كم منّا من جاء وتغرّب وترك الأهل وربما العمل.. ليتعلّم فيقال صاحب شهادة.. جاء من أمريكا.. جاء من أوروبا.. وليعود فيتشدّق على العباد بالعبارة الشهيرة «عندما كنت في أمريكا».. تذكروا.. أول من تسعرّ بهم النار.. وأعيدوا حساباتكم بسرعة..

أنا والموت

من أصعب الحقائق التي يتعامل معها مريض السرطان.. هي حقيقة أن الموت أقرب إليه من أي وقت مضى.. ربما.. أو هكذا نعتقد.. أن العدّ التنازلي في حياته «ربما» قد بدأ.. وعليه أن يستثمر ما بقي له من أيام طالت أو قصرت بأفضل استثمار..

والحقيقة أن هذا هو الحال بالنسبة للجميع.. فكم من أصحاء معافين خرجوا من بيوتهم ولم يعودوا بسبب حادث سيارة.. أو موت مفاجئ.. لكن مريض السرطان لديه «ميزة» هذا الإنذار المبكر.. ليستعد.. فلا يؤخذ على حين غرة..

للناس في التعامل مع فكرة قرب الموت طرق مختلفة.. فالكثير يفضلون «التناسي» و«التجاهل» والعيش بالأمل.. والاستمتاع باليوم.. وترك التفكير بالغد.. والتفكير بهذه الطريقة.. مريح حقاً.. وربما هو الصواب بالنسبة للبعض.. ولكني أشعر أنني إن ملت لهذا الاتجاه فسأضيع الهدف الذي من أجله حدث كل ما حدث.. بالنسبة لي.. من أعظم الحكم التي لأجلها نزلت هذه «العطية».. هو أن أدرك أن هناك ساعة موقوتة تعمل.. وأن وقتي على هذه الأرض ليس «اللا نهاية».. وأني راحلة.. سواءً قرب السرطان رحيلي أم لا.. لكن عليَّ أن أدرك أن مكاني ليس هنا..

أحاول قدر المستطاع أن أتقبل الموت كنهاية «سعيدة».. ألم يعطني الله إنذاراً ولم يأخذني وأنا في غفلة؟! ولو أراد لانتهت حياتي في حادث سيارة وأنا أفكر بغيظ في مناوبة الليلة الماضية، وكيف ألقوا عليَّ بكل العمل وذهبوا هم ليرتاحوا..

لكن الله شاء أن يخرجني من تلك الدوامة.. لأستعدّ.. وأتجَّهز.. فإن كانت النهاية بإذن الله وبكرمه وحده جنّة ونعيماً.. فلماذا أخشى الموت.. ولماذا أعيش في قلق من نتيجة تحليل أو أشعة أو كلمة طبيب. إن كانت النهاية اجتماعاً جميلاً بالنبي والصحابة وكل الأتقياء الأنقياء الذين مرّوا على هذه الأرض.. ساعدني هذا التفكير كثيراً وأزال عني الكثير من الحزن والقلق.. فلم يَعدْ لدى الأطباء ما يخوّفونني به.. فالخبر الأسوأ.. ليس سيئاً على الإطلاق.. بل هو بداية لحياة أخرى سعيدة.. ولكن بقي جرح واحد لا أملك دمعي كلما فكرت في النهاية بسببه.. أن يعيش ابني ذو الثلاثة أعوام يتيماً.. أنظر إليه فأجد دمعي يسيل من حيث لا أدري.. وليس زوجي أقل معزةً منه عندي.. ولكني

أعلم أنه سيغالب حزنه بعدي.. ويواصل حياته ويحاول النسيان.. ووالديّ.. فأعلم أن مخزون الإيمان لديهما سيكون لهما عوناً لمواصلة المشوار.. أما الصغير.. فما أقسى الحياة بغير أم.. أذكر أني كنت جالسة يوماً وابني يلعب بالهاتف المحمول.. وأخرج فيديو لي معه ونحن نطعم الماعز والخراف ونلعب معهم في إحدى المزارع.. لم أستطع أن أمنع نفسي من أن أقول لزوجي.. (الذي لا يحبّ النكد).. «لا تمسح صوري من جوالك»..

- ماذا؟

- « لا تمسحها.. أريد لابني أن يعرف أمه.. وأن لا ينساها».. لم أستطع أن أكمل وانفجرت باكية.. لأستمع لمحاضرة طويلة عن التفاؤل.. وحسن الظن بالله..

لماذا أحكي كل هذا الآن؟.. الدموع تخفي الأسطر فلا أستطيع الكتابة.. حسناً.. وهكذا.. فذكر الموت وتقبلّه.. مريح حقاً في وجود ربّ كريم.. وإن كان لا يخلو من «غُصّة» تختلف باختلافنا..

في العالم المجنون

عالم مجنون هذا الذي نعيش فيه.. الكل يركض.. بهدف وبدون هدف.. الكل يجري وراء شيء ما.. وخلال الركض.. للدراسة.. للعمل.. لتحصيل الرزق وحتى للمتعة.. لا يبقى للإنسان وقت ليتحسّس إنسانيته.. ليعرف نفسه.. ليذكر من هو.. وماذا يريد..

حتى الدقائق التي يمكن استغلالها هنا وهناك والتي أسميها «قصاصات الوقت» كأوقات الانتظار في السيارة والمواعيد المختلفة وفي المواصلات العامة.. صارت محجوزة لسيل من أخبار الناس وهرائهم على مواقع التواصل الاجتماعي.. وسيل من فيديوهات اليوتيوب المضحكة والمسلّية.. وصار كل إنسان «مشبوكاً» بالسماعات بهاتفه الذكي الذي يمطره في دقائق خلوته بسيل من الهراء ليشغل دقائق فراغه.. وكأنما لم يعد الإنسان يحتمل أن يجالس نفسه.. كأنما صار يستوحش من نفسه فيريد ضيوفاً ونزلاء على عقله في كل لحظة كائناً من كانوا.. وما أشقى من يستوحش نفسه ولا يطيق مجالستها..

في هذا الزمن.. صارت (رياضة التأمل).. أو سمِّها إن شئت (عبادة التفكر) طوق النجاة لنا جميعاً..

أن تخصص من يومك دقائق.. تجالس فيها نفسك.. بلا تشويش ولا ضوضاء.. بل وبلا أفكار عن الدنيا ومشاغلها..

أن تقضي دقائق كل يوم تعرف فيها نفسك.. وتأنس بها.. وتستشعر عمق إنسانيتك..

في قسم خاص بمستشفى MHG المستشفى الرئيسي لجامعة هارفارد يقوم الباحثون بدراسة تأثير هذه الدقائق من التأمل على الإنسان ويرون عجباً..

فليس تأثيرها على نفسية الإنسان فحسب مِن جعله أقل عرضة للقلق والاكتئاب، بل وعلى جسده كذلك، فهي تهبط الضغط المرتفع وتقلّل سرعة نبض القلب وتساعد في مقاومة الالتهابات وأمراض المناعة، بل وتقوم فعلاً بتغيير شفرة الجينات والبروتينات المصنعة منها داخل كريات الدم البيضاء. كل هذا تقوم به ٢٠ دقيقة من التأمل في اليوم.. بشرط أن تجلس في مكان هادئ بلا مقاطعات (ولا هواتف ذكية تطنطن حولك).. وتركز على كلمة واحدة أو معنى واحد.. تكرره داخل قلبك أو على لسانك.

فإن جاءتك أفكار متفرقة من نوع أين ستركن السيارة، ماذا ستتغدى اليوم، هل ردَّ فلان على الإيميل.. فدعها تنزلق من فكرك بهدوء وعاود التركيز على المعنى الواحد مهما يكن هذا المعنى أو هذه الكلمة..

هذا ما يقولونه في MGH.. فكيف إذا كان المعنى هو ذكر الإله الواحد الذي بيده طاقة الكون كلها، والذي هو القادر على منح السكينة والطمأنينة والعافية والرزق وكل ما يحتاجه الإنسان..

كم هي ثمينة هذه الدقائق.. ثمينة لعقلك المشوش بضوضاء العصر.. ثمينة لقلبك المثقل بالهموم والقلق على الغد.. وثمينة حتى لجسدك ليعيد بناء نفسه بنفسه ويغالب الأمراض التي تتحداه..

ألا تستحق ذاتك ٢٠ دقيقة في اليوم لحياة أسعد؟..

تساقط الشعر

«ماما هل أنت حزينة؟».

- «ماما هل أنت حزينة؟».

- «لا.. لماذا؟».

- «هل ستبكين الآن؟».

- «لا.. لماذا؟!!».

- «لأن شعرك يسقط ثانية».

ابتسمت دامعة.. متعجبة من ذاكرة ابني الذي لم يبلغ الأربع سنوات في موضوع مر عليه أشهر عدة.. حين بدأت الكيماوي لأول مرة..

أبلغني الطبيب أني سأفقد شعري بعد أول جرعة.. تألمت وحزنت.. ولكن بقي هناك أمل أن أكون محظوظة.. وأشذ عن القاعدة.. وذهبت لأول جلسة وسارت الأمور على ما يرام.. ومر على الجلسة ١٦ يوماً كان شعري فيها في أحسن أحواله.. حتى جاء اليوم السابع عشر.. لازلت أذكر ذلك تماماً.. كنت أستحم.. ومررت بيدي على شعري.. فبدأ يتساقط بغزارة.. أصبت بما يشبه نوبة هلع ورحت أتنفس بسرعة وأجهش بالبكاء.. إذ وقع ما كنت أخشاه..

لم تكن الكمية التي سقطت حينها كبيرة، ولكنها كانت إشارة لبداية النهاية لشعري الجميل..

كان إحساساً أليماً بالعجز.. العجز عن إنقاذ شعري الذي طالما أحببته كما هو.. وندمت حينها أني لم أقم بحلاقته قبل أن يسقط، كما قرأت في كثير من المنتديات لمريضات السرطان ولسان حالهن يقول «بيدي لا بيد عمرو».

بعدها وعلى مدار أسبوع، كانت كميات كبيرة من شعري تتساقط هنا وهناك.. في اليوم الأول كان الحزن هو سيد الموقف..

حينها كان ابني يراني باكية ويسألني.. «لمَ أنت حزينة؟»..

لم أحاول أن أخفي عنه ذلك.. لأني شعرت أنه في كل ما أمر به.. هذا أمر يستطيع استيعابه.. ولأني أردته أن يقدّر مشاعر الآخرين، وأن يعلم أن من حقّ كل إنسان أن يحزن حتى وإن كانت ماما القوية..

- «أنا حزينة لأني أفقد شعري.. لكن لو أعطيتني حضناً كبيراً (big hug) سأكون أفضل».

في الأيام التالية تلاشى الحزن تماماً.. وحل محله شعور عجيب باللا مبالاة.. ماذا يعني بعض الشعر؟.. لا شيء.. سخافة.. وعندما صار رأسي نصف فارغ.. حل الشعور بالغيظ.. الغيظ من هذا الشعر الباقي الذي لا يريد أن يسقط مرة واحدة ليريحني..

كنت طوال تلك الفترة أرتدي البندانة طوال اليوم، ومع كل وضوء أغلق الباب على نفسي حوالي النصف ساعة وأنا أحاول أن «أقطف» ما بقي من شعري لينتهي الإحساس بالخسارة.. العجز.. والحسرة..

لم أسمح لأحد أن يرى رأسي، لكني كنت أُري الشعر المتساقط لزوجي (ليتأهب للمنظر الجديد) وأقول ساخرة: «أنظر لمحصول اليوم»..

ومرَّ الأسبوع.. ولم يبق في رأسي شعر كثير.. وجاء زوجي من العمل يقول لي.. «اشتقت لرؤية رأسك.. لماذا لا تنزعين هذه البندانة؟».. رفضت تماماً.. لأن الشعر بالنسبة لي لم يكن مجرد جمال للمرأة.. كان شعري هو كبريائي وكرامتي.. وشعرت أني بدونه سأبدو ضعيفة مريضة.. وهو ما لم أكن أتحمله..

عندها دخل زوجي للحمام وسمعت صوت ماكينة الحلاقة..

- «ماذا تفعل بالداخل»؟

- «مفاجأة»..

وخرج بعد دقائق برأس حليق..

- «لِمَ فعلت ذلك.. لقد كنت تحبّ شعرك!!»

وخلال ثوان دخلت للحمام وأغلقت الباب ومررت بماكينة الحلاقة على ما بقي من شعري.. ثم استجمعت كبريائي.. وخرجت..

وكانت على غير المتوقع دقائق من الضحك المتبادل..

– «أو.. ما أصغر رأسكِ!».

– «مع ذلك أنا في منتهى الذكاء.. أرأيت كيف يكون استغلال المساحات!! أما أنت فما أكبر رأسكَ!».

– «هو مليء بكرة القدم والبلايستيشن واليوتيوب.. نحتاج لمساحات شاسعة!».

– انظر لهذا النتوء في مؤخرة رأسك.. هذا مكان الـ GPS.. لهذا أنت ممتاز في الخرائط والوصول للأماكن».

وأخذنا نتضاحك وابننا يضحك حولنا وهو يقول..

– «ماما.. بابا.. ماذا فعلتما؟!».

وسألناه معاً: هل تريد أن تحلق رأسك كذلك؟.. فأجاب: «لا. شكراً».

ومن يومها لم أحتج لإخفاء رأسي أمام أسرتي.. ولم أحتج لارتداء الشعر المستعار أو البندانة واستطعت التمسك بكبريائي وقوتي وإن كان رأسي حليقاً..

ليس اللّه حكراً على أحد

من الأمور الطريفة أنني عندما اكتشفت مرضي.. أرسلت لزملاء العمل (بأمريكا) أبلّغهم بما حدث وأعتذر عن غيابي وأخذي لإجازة طويلة سيضطر فيها الزملاء لتحمّل مهامي ومناوباتي.. وفي نهاية الرسالة طلبت ممن يؤمن باللّه الدعاء..

فكان أول الردود رسالة من زميل يهودي ملحد.. يهودي بالاسم والهوية والتقاليد الاجتماعية وملحد في اعتقاده.. أرسل لي.. «أنا لا أدعو عادة.. ولم أدع منذ زمن.. لكن لأجلك فقط.. سأقول بعض الدعوات!».. (طبعاً هذا كلام مجاملة).

ثم أرسل لي زميل من المثليين، هدفه في الحياة من عمله كطبيب نفسي للأطفال هو أن يدعم كل طفل ومراهق يرغب في أن يكون شاذاً وأن يزيل عنهم «الاضطهاد الواقع عليهم».. وهو يعطي في ذلك المحاضرات وينظم المسيرات.. أرسل لي.. سأذهب للكنيسة يوم الأحد خصيصاً لأدعو لكِ دعوات خاصة.. (ويا له من أمر غريب متناقض!!).

تلتها رسالة من أخصائية اجتماعية يهودية.. طلبت مني أن «أتماسك جيداً حتى السبت المقبل»، فهناك صلاة كبيرة في المعبد وستدعو لي هناك.. وكانت تتصل بي كل حين وتعرض عليَّ أن تطهو لي الطعام اليهودي «الكوشر»..

أما رئيس القسم اليهودي كذلك، فأرسل لي رسالة إيمانية مطولة عن الموازنة بين عدل اللّه ورحمته وأن رحمته دوماً تسبق عدله.. (كلام جيّد وسليم) أدركت من رسائلهم أن اللّه ليس حكراً على أحد كما تعلمنا.. وأن بابه مفتوح لكل من فيه نفخة من روح.. ولكننا نحن نغلق الأبواب ونضع السدود ونظن أن اللّه لنا فحسب..

قبل أسبوع ذهبت لإلقاء محاضرة عن أثر الإيمان في العلاج.. حكيت قصتي وكيف أن وجود اللّه هو أكبر نعمة في حياة كل منا وقلت فيها فيما قلت.. إن اللّه تعالى هو ربُّنا جميعاً مهما اختلفت أدياننا وأشكالنا.. هو ربّ الضعيف ورب الجريح مهما كان اسمه أو لونه أو دينه.. وهو الوحيد الذي بابه مفتوح ٢٤ ساعة ٧ أيام في الأسبوع.. لا يحتاج لسكرتير ولا لموعد.. كل ما عليك هو أن تناديه لتجده معك..

وما إن أنهيت الحديث حتى وقفت راهبة من الحضور، قالت وعيناها تمتلئان دمعاً..

إيماني قد زاد اليوم وتضاعف بسماع حديثك.. وأشعر أن هذه الغرفة التي نحن فيها قد صارت قطعة من الجنة تحفّها الملائكة من كل مكان.. أشكرك بشكل خاص أنك لم تحصري هذه العطية الإلهية بدين ولا بجنس، وأنك احتويتنا جميعاً معك لنشاركك هذه التجربة.. وفتحت لنا الباب لعلاقة عميقة مع الإله الواحد.. هذا هو صلب الإيمان وأساس علم اللاهوت.. الإيمان المجرّد من كل الشروط والحيثيات.. الإيمان القائم على علاقة عميقة بين اثنين.. قلب الإنسان.. ورحمة الرحمن..

ثم خطت إليَّ وتعانقنا..

طريقة أكل الفيل

هناك طريقة واحدة لأكل الفيل.. قضمة واحدة تلو الأخرى.. لا أحد يستطيع أكل الفيل مرة واحدة.. ولا أحد يستطيع حل مشاكل العالم مرة واحدة.. مهما أحبَّ الناس وأرادوا التغيير.. لا يأتي التغيير مرة واحدة.. والخطأ يقع عندما نستصغر العمل ونستقله..

أن أبدأ بمحاربة الفقر في العالم بجاري الجائع.. والشحاذ الذي على رأس الشارع.. هي حقاً بداية التغيير..

لا أدري من أين أتينا بذلك الطموح العجيب الذي يجعلنا نريد «فجأة» أن نصبح عظماء مغيّرين مشهورين.. رغم أن سنة الله في الأرض كانت دوماً أن كل عمل لا بدّ أن يبدأ صغيراً ثم يكبر.. هكذا بدأ الأنبياء وبعضهم لم يحرز إنجازاً ملحوظاً في حياته (بمفهومنا الحالي للإنجاز) رغم أنهم كانوا أقرب الناس لله.. وأصدقهم رغبة في التغيير..

فما أشد حمقنا حين نضيّع فرصاً ونغلق أبواباً للخير يفتحها لنا الله من فوق سبع سماوات أو ندير ظهورنا لها غير مكترثين، إذ لا نراها تليق «بعظمتنا».. حيث تعريفنا للتغيير الكبير والإنجاز العظيم مخيف حقاً.. فكم منا من يشوبه حبُّ الشهرة وكم منا من تلوّثه «الأنا»..

وكم من الناس قد أُعطوا منابر وتابعهم الملايين ولم يكن منهم تغيير حقيقي ولا خير حقيقي وكان أثرهم كمثل الزبد الذي يذهب جفاء.. وكم من عبد تقي نقي مستعين بربّه في رغبته الصادقة في التغيير، أنزل الله على يديه الخير الكثير وإن لم يتبعه الكثيرون وبقي أثره كشجرة أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها.

العبرة ليست بالأرقام ولا «بأتباع تويتر» ولا المصفقين ولا المعجبين.. العبرة بمحتوى وعمق العطاء.. وليس لنا بعدها من الأمر شيء.. بل الأمر بيد الله.. الذي يفتح وينشر ويبلّغ.. ولا يضيع صدق الصادقين..

مقايضة المصائب

في دورة للتنويم المغناطيسي للمعالجين النفسيين والأطباء، تعرفت على لويس وزوجته إيمي.. في البداية تعرفت على لويس في إحدى مجموعات العمل الصغيرة.. سألني المدرب عما أريد أن أحققه لنفسي من خلال التنويم المغناطيسي، فأخبرته عن بعض أعراض الكيماوي التي أود أن أتخلص منها.. وكان لويس يستمع.. فسحب كرسيه إلى جانبي وسألني عن قصتي.. فأخبرته الحكاية باختصار وأنا أبتسم.. فتأثر كثيراً.. وأشعرني بإعجابه الكبير بصبري وقوتي مع كبر المصاب..

ثم جاء وقت الغداء.. فجلست معه هو وزوجته وبعض الحضور الآخرين.. وعرفت أن إيمي قد فقدت بصرها تدريجياً خلال السنوات الأخيرة بسبب مرض وراثي.. وأنها الآن لا ترى أبداً.. ولكنها مع ذلك مستمرة في العناية بأولادها والعمل كمعالجة نفسية ومستمرة في تطوير نفسها وحضور الدورات والصراع مع الحياة مغمضة العينين.. تعلمت كيف تقوم بمسح كل الكتب والمواد العلمية ضوئياً على الكمبيوتر الخاص بها ليقوم بالقراءة لها.. تعلمت كيف تستخدم «سيري» في هاتفها الذكي لتعينها في كل أمور حياتها. وهي الآن على قائمة الانتظار منذ أكثر من عام للحصول على كلب مرشد يعينها في التنقل. فالتحدي الأكبر دائماً هو الذهاب لمكان جديد.. حيث لا تعرف الطرق، فكان لويس يصاحبها خطوة بخطوة ولا يدعها أبداً..

وبعد الغداء.. أرادت إيمي الذهاب لدورة المياه.. ولما كانت مخصصة للنساء فقد طلب مني لويس مساعدتها.. وذهبت معها.. كم كانت أتفه الأمور التي نقوم بها بكل بساطة صعبة عليها.. أن تعرف بأي اتجاه يفتح الباب.. مكان المناديل.. طريقة استخدام عبوة الصابون.. طريقة فتح صنبور المياه.. كل التفاصيل الصغيرة التي نقوم بها بلا مبالاة، كانت بالنسبة لها تحديات كبيرة.. وخرجت معها وبينما نحن على وشك نزول الدرجات المؤدية لقاعة المحاضرات قالت ضاحكة.. «أعطني كتفك.. لا أحتاج إلا كتفاً.. لأعرف طريقي»..

ملأ التأثر قلبي.. وأنا أتخيل حجم المصيبة التي وقعت عليها وعلى زوجها.. ورحت أتعجب من قوّتهما ومن صبرهما.. ومن روحهما العالية التي جعلتهما يتعايشان مع هذه

المصيبة معاً..

ثم فكرت للحظة.. ترى لو قيل لي أن أقايض إيمي.. فآخذ فقدها لبصرها (الذي لا يهدد حياتها في نهاية الأمر.. ولا يعرضها للكيماوي ولا للإشعاع ولا لكل القلق والمخاوف).. وأعطيها سرطان الثدي.. هل كنت سأقبل..

ولم أتردد لثانية.. وشعرت فجأة أن سرطان الثدي هو صديقي العزيز الذي أستقبله سعيدة راضية إذا قورن بفقد بصري واحتياجي لشخص يقودني ويسوقني في كل الأوقات..

وتخيلت لو عرضت هذه المقايضة على إيمي ولويس.. وتخيلت الاثنين وهما يصيحان معاً.. السرطان.. لا. لا.. فقد البصر أهون بكثير من هذا التهديد المستمر بالرحيل عن الحياة..

ورحت أستعرض كل أصحاب الابتلاءات الذين أعرفهم.. كل الابتلاءات صغيرها وكبيرها.. من المرض النفسي.. للطلاق.. لمرض الأبناء.. وحتى الخلافات الزوجية.. هل أحبُّ أن أقايض أيّاً منهم بأن آخذ بلاءه وأعطيه مرضي..

شعرت عندها بحبّ شديد لله الذي هو أعلم بي من نفسي.. والذي اختار لي (ولكل منا) البلاء المناسب تماماً والذي أقوى على تحمّله.. ليجزيني به أجر الصابرين.. ولو كان بلائي مثلاً كبلاء بعض من أعرف.. زوج بغيض.. يذكرني بعيوبي ويحطم نفسيتي وثقتي بنفسي (رغم أنه يبدو من بعيد أهون بكثير من الإصابة بسرطان شرس وفي مرحلة متقدمة) لكان هذا البلاء أثقل على نفسي بكثير، ولا أدري أكنت أستطيع الصبر والاستمرار في الإنجاز والعطاء أم لا..

فسبحان من قسَّم الأرزاق.. وقسَّم الابتلاءات.. لعلمه بكل منا وبما يصلحه في الدنيا والآخرة..

الآلة المنتجة

لا أدري أين ذهبت علاقتي بالله..

لا أدري كيف غدا تركيزي واهتمامي بالإنجازات التي قد تقرّبني منه بصورة غير مباشرة بدلاً من التركيز على العلاقة نفسها..

على المناجاة والكلام والدموع والإحساس..

لماذا كلما تحررت من سجن «الآلة المنتجة» الذي كنت أعيش فيه، أعود إليه مرة أخرى..

وتعود قيمتي ثانية تكمن في.. كم كتاباً قرأت؟.. كم مقالاً كتبت؟.. وكم محاضرة أعطيت؟.. وعلى كم شهادة حزت؟..

بينما هؤلاء بغير روح كمثل الزبد الذي يذهب جفاء..

لا أدري لِمَ أركز على الأعمال وإنجازها والكفاءة في استخدام الوقت وعدد الأعمال المنجزة في نهاية اليوم ولا أعير بالاً للاستمتاع بالعمل واستشعار التقرب إلى الله بالعمل..

لا أدري متى سأتعلم.. متى سأفهم أن الحياة ليست سباقاً نجري فيه حتى الموت..

وأن وقفة صدق.. قد تقطع بي في الطريق إلى الله ما لا تقطعه سنوات من الركض المستمر لإنجاز أكبر قدر ممكن من الأعمال الخاوية..

علام العجلة؟

من العجائب.. أنني في كل مراحل حياتي كنت دوماً متعجّلة للقفز للمرحلة التي تليها.. أما في هذه المرحلة فأشعر أني أريد أن أعيش كل يوم بطوله وأستمتع بكل لحظة فيه.. حين يدعو لي الأحباب بشفاء بين عشيّة وضحاها.. أو يستعجلون العلاج لنقضي على المرض بأسرع ما يمكن.. أشعر بالاستغراب.. لأني لست مستعجلة أبداً.. فإن كانت نهاية هذه المرحلة الشفاء والعودة للعمل ولدوامة الحياة، فإني أريد أن أتزود أولاً

بإيمان راسخ.. وعلم نافع.. ومعرفة أعمق لذاتي.. قبل أن أعود لحلبة السباق.. وعالم الراكضين.. لأعود بفكر مختلف وعطاء مختلف.. وإن كانت النهاية هي الرحيل.. والعودة لجوار الله.. فإني أريد أن أستعدّ للقائه.. وأتزود للرحيل.. وأتمتع فيما بقي من أيامي برؤية ابني قبل أن أودعه.. فعلام العجلة وهذه في كل الأحوال.. أيام ممّيزة في حياتي لن تعود بعد ذلك أبداً؟.

البادجر وأمهات اليوم

أشاهد مع ابني فيلماً وثائقياً عن حيوان أفريقي اسمه البادجر honey badger. (يترجم للعربية بلفيف العسل أو الغرّير، وهو حيوان ثديي قصير القوائم يحفر في الأرض مسكنه، وله فرو مطلوب).

لقطة عجيبة.. الأم تحمل ابنها الرضيع معها في كل مكان وهي تبحث عن صيد.. ولا تستطيع تركه في «البيت» لأنه ليس هناك بيت آمن في السفانا الأفريقية.. وخلال الرحلة.. يمرض الصغير ويكاد يموت.. واضح من أنفاسه المتباعدة وضعفه الشديد أنه لن يعيش طويلاً.. لكنها تستمر في حمله معها في كل مكان، لأنها تدرك أنها لو تركته فسيكون فريسة لمئات الحيوانات الجائعة التي تنتظر صغيراً مريضاً كوجبة سهلة.. تبقى تحمله حتى تواجه ذكراً من نفس فصيلتها يحاول التهام ابنها.. فتدخل معه في معركة حامية تكاد تفقد فيها حياتها لأجل ابنها الميت لا محالة.. وينتصر الذكر القوي.. ويركض بعيداً بابنها ليأكله ويتركها مثخنة بالجراح..

هي ليست غبيّة.. هي تعرف أنه ميت لا محالة. وحتى إن عاش، فقريباً يكبر وينفصل عنها، بل ويصبح منافساً لها في صيدها.. فلِمَ تخاطر بحياتها لأجله..

في غرفة انتظار بالمستشفى قرأت في إحدى المجلات قصة فتاة في الثانية والعشرين.. أصيبت بسرطان المبيض.. ونصحها الأطباء بعملية استئصال المبيضين مع الكيماوي، رفضت أن تستأصل المبيضين.. لم ترد أن تخسر فرصتها في الإنجاب.. واستأصلت المبيض المصاب فحسب ثم بدأت رحلة العلاج الكيماوي.. حتى شفيت.. وخلال خمس سنين.. وفي زيارة عادية للطبيب.. اكتشفت عودة السرطان لمبيضها المتبقي.. وهو الآن ورم ضخم بحجم ١٠ بوصات.. ورم يهدد حياتها، وينذر بعودة لنفس الطريق المؤلم، طريق الجراحة والكيماوي وكوابيس الموت.. لكن كل ذلك لم يكن أكبر همها.. كان أكبر همها هو: هل يعقل أنني سأحرم تماماً من أن يكون لي طفل؟.. وقررت أن تجازف.. قررت أن تؤجل العملية العاجلة لاستئصال الورم حتى تجد طبيب إخصاب يستطيع أن يحصل على عدد من بويضاتها لتجمّدها في بنك البويضات إلى أجل غير مسمى.. رأى أطباء الورم أن ما تقوم به جنون.. ومخاطرة بحياتها لغير سبب.. فجني

البويضات للتجميد يستغرق وقتاً ويعطل العلاج ويسمح للورم بالانتشار.. لكن شعور الأمومة عندها طغى على كل شيء.. «أريد أن أشعر أن السرطان لم يسلبني كل شيء.. أن هناك في الثلاجة تنتظرني ١٠ بويضات لحين أنهي العلاج وأجد الشريك المناسب ليكون لي طفل من صلبي».

أي عاطفة عجيبة هذه التي تجعل المرء يخاطر بحياته لأجل ابن لم يأت للحياة بعد.. بل لم يصبح حتى جنيناً بعد.. إنه مجرد مشروع ابن كامن في خلية واحدة في مبيضها..

وأنظر حولي فأرى عجباً وأسمع عجباً.. أرى فكراً عجيباً غريباً على الإنسانية.. وغريباً حتى على عالم الحيوان.. «سأرمي بالأولاد لأبيهم.. فغداً يكبرون ويذهبون له وينسونني.. فلِمَ أضيع شبابي معهم الآن؟!!».

«هؤلاء الأولاد لن ينفعوني غداً.. غداً يصبح كل همهم الأصحاب والخرجات ثم الزوجات.. وظيفتي هي ما سيبقى لي.. وهي وحدها الأمان.. ونجاحي الوظيفي يأتي أولاً»..

أعلم أن حياتنا اليوم قد تغيّرت وصارت جدّ صعبة.. ولكنها لن تكون أصعب من حياة أم البادجر، التي قررت أن تضحي بنفسها للدفاع عن جرو سيموت بعد ساعات ولن ينفعها في أي حال..

العلم المسكين

عالم عجيب هذا الذي نعيش فيه.. نزع فيه من العلم النافع معناه وصار العلم يطلب لورقة اسمها «الشهادة» حتى الشغف باكتشاف الجديد في دورة أو مؤتمر صار محصوراً في إطار «هل سآخذ شهادة حضور؟!!» قتل هذا النظام العلم لأجل العلم.. لأجل النفع والبركة.. لأجل أجر طلب العلم.. وصرنا جميعاً طلاب «أوراق» طلاب «شهادات حضور» و«بوردات عالمية».. على أمل أن تفتح لنا هذه الوريقات أبواب الرزق الوفير والعمل المرموق والتبجيل عند الناس.. ثم نستغرب إن لم تفعل.. ويقول أحدنا أنا عندي كذا وكذا من الشهادات ولم أنل العمل أو التقدير أو الراتب الذي أستحق.. وكأنما صارت هذه الوريقات المدعوة بالشهادات تقرير استحقاق للحياة الرغيدة، فإن لم تكن، نسخط ونقول: لماذا يا ربّ!!

ولو وضع أي منا في المحك ليختار بين علم بشهادة وعلم أنفع منه وأعمق لكن بغير شهادة، لاختار الشهادة على العلم، فهكذا صارت الحياة..

مسكين هو العلم بمعناه الواسع العميق.. العلم الذي قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم: «مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَطْلُبُ فيه علْمًا سَلَكَ اللَّه به طَرِيقًا مِنْ طُرُقِ الْجَنَّةِ وَإِنَّ الْمَلاَئِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا رِضًا لِطَالِبِ الْعِلْمِ وَإِنَّ الْعَالِمَ لَيَسْتَغْفِرُ لَهُ مَنْ فى السَّمَوَاتِ وَمَنْ فى الأَرْضِ وَالْحِيتَانُ فى جَوْفِ الْمَاءِ وَإِنَّ فَضْلَ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ وَإِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الأَنْبِيَاءِ وَإِنَّ الأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا وَلاَ دِرْهَمًا وَرَّثُوا الْعِلْمَ فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ».

هذا الفضل العظيم راح ضحية الوريقات التي أسميناها الشهادات..

شريح القاضي

من تعرّض لرحمات الله نالها.. ومن أعدَّ الأسباب التي في يده ليستعمله الله، فتح الله له باب العمل من حيث لا يحتسب.. ورزقه فوق ما يستحق إعداده..

شريح.. رجل عادي.. من أهل اليمن.. حُرِم العدل منذ صغره، فصار العدل أكبر معنى في حياته..

أسلم في الثلاثين على يد علي بن أبي طالب مع أهل اليمن.. ومنذ أسلم.. كان حلمه أن يكون سبباً في إحقاق العدل في الأرض.. لم يكن يملك منصباً.. ولا عيّنه أحد.. ولا استعمله أحد.. لم يكن إلا رجلاً من البسطاء.. لكنه عشق حلمه في إحقاق العدل.. وبدأ يعدُّ نفسه وهو في بيته.. فدرس وقرأ وتفكّر وأعدَّ كلَّ ما يمكن أن تقع عليه يده من ذكر للعدل في القرآن أو السنة.. وتخيل نفسه في ذلك الموقع الذي يمكنه به إحقاق العدل.. وتخيل كل القضايا الشائكة التي يمكن أن تعرض عليه.. وأعدَّ لها في نفسه قراراً عادلاً..

وبعد ١٧ سنة من الإعداد.. بعد أن بلغ شريح من العمر ٤٧ عاماً بغير أن يرى أي بادرة لتحقّق حلمه.. جاء اليوم الذي دبرّ الله له فيه تدبيره.. فاختلف عمر بن الخطاب الخليفة آنذاك مع أحد المسلمين، فأرادا أن يحتكما إلى أحد.. فاختار خصم عمر شريحاً ليحتكم إليه..

وحان وقت الاستعمال والفتح الإلهي الكبير.. وحكم شريح.. وأعجب عمر بحكمه.. وبفهمه العميق في القضاء.. فعيّنه قاضياً على الكوفة.. وبقي شريح قاضياً للمسلمين على مدى٦٠ سنة ولمدة حكم ٥ خلفاء.. أمد الله في عمره حتى ناهز المائة وسبعة أعوام وهو بكامل عقله ولا يزال في منصبه.. أمد الله في عمره أضعاف ما فاته من وقت للإعداد.. وقت أن كان بذرة تحت الأرض لا يراها الناس، ولكن جذورها تمتد في الأرض.. وترسخ وتهيئ لشجرة طيبة تخرج بعد ١٧ سنة.. أصلها ثابت وفرعها في السماء، تؤتي أكلها بإذن ربها ٦٠ سنة وتستمر في إيتاء أكلها حتى بعد وفاة شريح بما تركه من تراث في إحقاق العدل..

إنما علينا الإعداد.. وعليه سبحانه الفتح والتمكين..

وبناء الجذور الراسخة وإن استغرق وقتاً ولم يبدُ للناس، فهو الأساس لكل عطاء كبير يبقى أثره..

أما ما نراه اليوم من ضوضاء.. يحدثها الغثُّ والسمين.. طلباً للشهرة والمجد.. الكلُّ يتكلم.. الكلُّ يتفلسف.. الكلُّ يمسك بمنبر.. الكلُّ يريد أن يشتهر ويعلو اسمه.. بلا جذور.. بلا عمق.. وبلا معنى..

فأحقّ ما يقال فيه أنه كالزبد الذي يذهب جفاء.. ويجرفه السيل بكل سهولة.. مهما كثر المتابعون والمصفّقون.

آخر أيام الإشعاع

أجر أقدامي ليوم آخر من العلاج الإشعاعي.. لمدة سبعة أسابيع آتي للمستشفى كل يوم لتلقي الإشعاع.. ولكن في الأيام الأخيرة صارت الأمور أصعب، وصرت أمقت هذا المشوار الصباحي البغيض.. فالجو يزداد برودة والعواصف الثلجية تهبُّ كل حين وآخر.. والسير في الثلج والرياح مؤلم ومرهق.. أضف لذلك أن العلاج في الأسابيع الأخيرة قد أثرَّ كثيراً على المنطقة المتعرضة للإشعاع.. فالتهبت وتقرحت وصارت حتى الثياب مؤلمة إن لامستها، ولكن لا يزال عليَّ الاستمرار والتعرض للمزيد والمزيد من العلاج الإشعاعي على منطقة احترق فيها جلدي تماماً.. أجرُّ أقدامي وأحاول تجديد النية.. حسناً.. أنا ذاهبة لطلب التداوي كما أمرنا الله.. حتى أكون قد أخذت بكل الأسباب ولم أدع شيئاً أستطيع فعله.. أطلب التداوي لأقضي على ما بقي من المرض.. لأحيا.. وأعيد التفكير مراراً.. لماذا أريد أن أحيا؟.

لأكون لأبنائي خير أم.. لأعينهم في مشوار الحياة الصعب وأضيء لهم طريقهم ما استطعت.. لأكون نوراً للناس من حولي.. ودفعة أمل لهم.. لأكون لمرضاي الذين ضاقت بهم السبل خير طبيبة تشعر بألمهم وتفهمه بعمق بعد كل ما مررت به.. لأفتح في الطب النفسي فتوحاً تخدم بلادنا التي تعاني فقراً مدقعاً في هذا المجال.. فقراً في الكمّ والكيف والموارد وحتى الفهم والتقَبل..

حسناً.. جدّدت النية.. ووصل القطار لمحطة المستشفى.. وحان الوقت للمزيد من الإشعاع.. تستقبلني الممرضة ضاحكة.. اليوم الأخير.. يااااااي..

- حقّاً.. اليوم هو اليوم الأخير.. وتنفرج أساريري بضحكة من القلب.. أخيييييراً.. الحمد لله..

كنت أكاد أقفز فرحاً.. غيرت ملابسي بسرعة وجلست في غرفة الانتظار.. وإلى جواري سيدة مسنة أراها لأول مرة..

بادرتها بسعادة:

- اليوم آخر يوم لي!!! (لم تكن الفرحة تسعني، فأردت مشاركة أي أحد)..

– حقاً.. مبروك.. أنا في ثالث أسبوع من أصل سبعة..

– ستكونين بخير.. وستمر بسرعة..

– أين تأخذين الإشعاع..

– مكان الثدي المستأصل.. وأنت؟

– الدماغ.. هذا سيئ أليس كذلك.. لكني واثقة أن الله سيعتني بي.. وبك..

– نعم.. أعلم ذلك.. نحن في نعمة.. وسكتُّ برهة ولا أدري لم وجدت نفسي أقول لها:

– لديَّ في البيت طفلان.. أربع سنوات.. وأربعة أشهر.. وابتسمت..

فردّت بابتسامة واسعة وقالت:

– لا تقلقي. سيبقيك الله لهم لتربيّهم.. أنا واثقة.. سأدعو لك.. وأنت.. ادعي لي..

وجاءت الممرضة لتناديني للجلسة..

ابتسمت لها وذهبت.. وبعد الإشعاع.. أعطتني الممرضة ورقة ملفوفة.. تساءلت ما هي، فقالت ضاحكة.. شهادة التخرّج!

فتحتها ووجدت فيها شهادة تخرّج من الإشعاع.. بتوقيع كل الممرضات اللاتي رأيتهن خلال أسابيع العلاج وتمنياتهن لي بالشفاء..

كم أحببت هذه الهدية.. وكم حملت كثيراً من التفاؤل في طياتها..

وخرجت من المستشفى وقلبي ينبض بالحبّ لكل من يشاركني الإنسانية ويتنفس معي نفس الهواء..

العيش بنصف جسد

أعود للعمل بمستشفى الإدمان مع عتاة المدمنين والمجرمين.. أعود للعمل مع أناس أمضو سنين وسنين ولا معنى لحياتهم سوى المخدّرات.. خسروا كل شيء.. الأهل والأصدقاء والمال.. ارتكبوا الجرائم والحماقات وكبرت بهم السن وهم لا يزالون يلهثون وراء السعادة الزائفة في هذه الشمّة وتلك الحقنة.. أقابل مرضاي واحداً تلو الآخر.. ليست هذه زيارتهم الأولى ولن تكون الأخيرة.. فالحال لم يتغيّر منذ سنين. ومع كل مريض أراه، أشعر بألم شديد يعتصر روحي ولا أكاد أستطيع التنفس..

وددت لو أصرخ في كل واحد منهم: «أنت لا تدرك ولن تدرك كم هي ثمينة نعمة الحياة هذه التي تريد أن تضيّعها بحماقتك!!»..

لا يدرك كم هي ثمينة نعمة الحياة إلا من كاد يفقدها.. وتعود بي الذاكرة لليلة أليمة.. ليلة من ليالي العلاج الإشعاعي.. انتفخت منطقة الإشعاع فجأة وتغير لونها من الأحمر للبنّي ثم للأسود.. صارت المنطقة مشدودة ومنفوخة ومؤلمة حتى أن الملابس صارت تؤلم إن لامستها.. ولم أستطع النوم في تلك الليلة..

لم يكن أسوأ ما في الأمر الألم.. بل كانت أفكاري.. لأني طبيبة تخيّلت ماذا يمكن أن يكون قد حدث هكذا فجأة.. لعل العضلات قد ماتت من الإشعاع.. لعلي أصبت بحالة Necrotizing facietis وهي حالة تشبه الغرغرينا في منطقة تكاد تموت.. الحل في هذه الحالة هو قطع اليد أو الرجل المصابة في أسرع وقت حتى لا ينتشر المرض في الجسم ويقضي عليه.. تمنيت حينها لو كان هذا الالتهاب في يد أو رجل لتقطع في سبيل أن أبقى على قيد الحياة.. ولم يكن في صدري.. فكيف يمكن استئصال صدري.. كنت شبه نائمة وأتخيل عملية خرافية لاستئصال نصف الصدر.. كان الليل طويلاً ومرعباً..

تذكرت فيما يشبه الهذيان عملية أخبرني زوجي عنها.. عملية لا يقوم بها إلا قلة من الأطباء الروس في روسيا.. تسمى hemicorpectomy يقومون بها عندما ينتشر السرطان في الحوض وتستحيل كل العلاجات الأخرى، فيستأصلون نصف الإنسان السفلي تماماً ويفتحون في الجذع العلوي فتحتين للتبول والتبرز.. ويودع المريض رجليه وحوضه ويفضل أن يعيش بنصف جسد على أن يخسر حياته.. في لحظات الهذيان

والألم كنت مستعدّه لتقديم هذه العملية بل تمنيتها لأبقى على قيد الحياة.. ولكن المرض كان في نصف قفصي الصدري فكيف يستأصل هذا؟ لا حل..

وجاء الصباح وذهبت لطبيبة الإشعاع لتنظر لصدري المنفوخ والمسود وتقول لا داعي للقلق.. هذا يحصل لكثير من مرضى الإشعاع، وهو من الأعراض الجانبية التي ستزول بعد فترة..

إذا لم تمت العضلات.. وليست هذه غرغرينا ولا التهاباً قاتلاً.. عندها تذكرت استعدادي للعيش بلا يد أو رجل، بل وبنصف جسد وأدركت كم هي غالية نعمة الحياة.

ما أتعس من يهرب من نفسه

في مستشفى الإدمان لمدة شهر.. ويا له من شهر.. تعرفت على أجزاء من الحياة لم أرها من قبل.. رأيت أنواعاً من البشر لم أرها من قبل.. مرضاي الأعزاء.. كلهم زاروا هذا المستشفى سابقاً مرات ومرات (وبعضهم لم يزل يزوره منذ ٢٠ سنة).. كلهم تقريباً خسروا أهلهم تماماً فلا يريد أهلهم سماع أي شيء عنهم ولا السماح لهم بالاقتراب من منازلهم (والبعض يصدر الأهل حكماً من المحكمة لا يسمح للمريض بالاقتراب من البيت على مدى كيلومترات).. معظمهم يعيش في الشارع ويتنقل بين المستشفيات في الليالي الباردة مدعياً أنه على وشك الانتحار ليهرب من برد الشتاء القارس.. أو يتسكع في بيوت الأصدقاء وينام على أريكة هذا وذاك حتى يتم طرده.. معظمهم زار السجن لجرائم تتراوح بين حيازة المخدرات.. السرقة المسلحة.. الاعتداء على الممتلكات والاعتداء على ضباط الشرطة.. معظمهم اعتُدِيَ عليه طفلاً بالضرب أو الاغتصاب ليكبر ويكون هو المعتدي والمغتصب لاحقاً.. أما الفتيات فكلهن تقريباً تم اغتصابهن مرات عدة.. ومعظمهن يمارسن الدعارة ليوفرن ثمن العنصرين اللذين لا غنى عنهما لحياتهن.. المخدرات.. وشيء من الطعام..

دورنا كفريق معالج يتلخص في مساعدتهم على التوقف عن تعاطي المخدرات.. خلال ٣-٤ أيام نقوم بإعطائهم بديلاً عن المادة التي كانوا يتعاطونها في الخارج ونقلل الجرعة يومياً لنساعد أجسامهم على التخلص منها بأقل أعراض انسحابية ممكنة.. ونعالجهم من أي مرض نفسي مصاحب للإدمان كالقلق أو الاكتئاب، ومن ثم يعمل فريق الأخصائيين الاجتماعيين على نقلهم لبرامج إعادة التأهيل المخصصة للمدمنين والتي تتوفر بدرجات وجودات متفاوتة.. وهذه البرامج يمكن فيما بعد إن أحسن المريض التصرّف فيها أن تنقله لسكن تهيئه الولاية للمقلعين عن الإدمان.. سكن مجاني أو شبه مجاني شرطه الوحيد أن لا يدخل الساكن إليه أي مخدر أو كحول أبداً..

ورغم أن الخدمة المقدمة تبدو للقارئ جيدة وكافية ليبدأ المدمن حياة جديدة، إلا أن العامل في المجال يرى الفشل الذريع.. يخرج المريض من المستشفى اليوم قائلاً.. هذا آخر عهدي بالإدمان.. انتهت هذه الحقبة وسأبدأ حياة جديدة (ولا أدري هل يعنون هذه الكلمات أم يقولونها إرضاء لخواطر الكادر الطبي).. يخرج لبرنامج

إعادة التأهيل، فيدخل في مشاجرة ويضرب أحداً أو يسرق أدوية أحد أو يملّ ولا يطيق البقاء.. والنتيجة واحدة.. العودة للشارع وحقن الهيروين وأنفاس الكوكايين.. ليعود لنا أو لغيرنا من مستشفيات الإدمان بعد أسبوع أو اثنين، بعد أن يجده أحدهم ملقى مغمى عليه في جرعة زائدة أو بعد أن يقرصه البرد والجوع، فيقرر الدخول مرة أخرى ليستمتع ببعض الليالي الدافئة والوجبات الساخنة..

سألت نفسي مئات المرات.. لماذا؟ لماذا هذا الفشل الذريع؟ وجاءني الردّ مع كثرة الحوار والتعامل معهم.. مساكين هؤلاء الناس.. لسنين لم يجالسوا أنفسهم للحظات.. لا يطيق أحدهم فكرة أن يكون مع نفسه.. أن يفكر.. ويقولونها صراحة كما صاغها أحدهم «منذ سنين وكل ما أعمله هو to get high أن أعيش تحت تأثير نشوة هذا المخدر أو ذاك.. فإن لم يكن للنشوة، فهو لمجرد الهرب.. من التفكير.. ومن أن أنظر لحياتي.. فحياتي لا مستقبل فيها ولا ماضي.. تشوّه في الماضي بالاعتداء والاغتصاب والذكريات المؤلمة.. وليس في المستقبل ما يمكن أن أطمح له.. البقاء بغير أي مخدر أو حتى دواء مهدئ أو منوم، يجعلني أواجه نفسي التي أكرهها كثيراً.. ولا أجد مهرباً منها إلا الانتحار.

أسمع كلماتها وكلمات غيرها المشابهة.. ولا يسعني إلا التعاطف والتفهم.. التعاطف حتى مع المجرمين منهم والمعتدين والمغتصبين.

أرى هذا الإدمان العنيف بأبشع صوره، ثم أركب القطار بعد كل يوم عمل لأرى وجهاً آخر من الإدمان. حيث الكل مربوط بجهازه الذكي من أذنيه ويستمع لموسيقاه، بينما أنامله تتحرك بسرعة على الشاشة الذكية لتستعرض كل ما في المواقع الاجتماعية من «لا شيء».. والسبب هو نفس السبب، أن الإنسان لم يعد يطيق مجالسة نفسه.. ولم يعد يتحمّل الوحشة القاتلة في جوفه، فهو يبحث متشنّجاً عن أي إدمان يلهي عقله عن التفكير وقلبه عن الإحساس.. ولكلّ منّا إدمانه.. من حقنة الهيروين إلى المواقع الإباحية إلى مواقع التواصل الاجتماعي التي لا تواصل فيها ولا اجتماع.

الكلّ يهرب.. الكلّ يهرب.. وما أتعس من يهرب من نفسه!

بعد انتهاء العلاج

يظنُّ الناس أن كل مشاكل مريض السرطان تنتهي بانتهاء فترة العلاج.. وكأن العصا السحريّة قد قضت على كل خلية شرّيرة، ما دمنا لا نرى بالفحوصات شيئاً، فالموضوع انتهى وصار تاريخاً وذكرى..

والواقع مع الأسف ليس كذلك.. لا الواقع علمياً كذلك ولا الواقع نفسياً كذلك..

فعلمياً.. الطب أعجز بكثير مما نتخيّل.. لا توجد فحوصات تنفي وجود أيّ خلية سرطانية هنا أو هناك.. لا يمكن تأكيد عدم انتشار المرض ولا يمكن التكهّن بطريقة تصرف تلك الخلايا السريعة النمو مهما بلغ بنا العلم.. الأمر في النهاية بيد العليّ القدير.. أما نفسياً فلا يرحل المرض أبداً.. يبقى القلق من عودته، من انتشاره، من انتقاله لمكان آخر.. ويبقى الأثر الجميل الذي يبقي حبل المريض موصولاً بربه يرجوه ويتوكل عليه، حيث لا ينفع أحد ولا يعي حقيقة الأمر أحد..

في كل ليلة لي لقاء مع أفكار المرض.. ذاك الصداع الذي أصابني اليوم.. أيكون انتشاراً له في الدماغ.. وأستعيد كل أعراض أورام الدماغ، فأذكر أن الصداع بدأ ليلاً وصداع الورم عادة يبدأ فور الاستيقاظ من النوم ويصاحبه الغثيان.. وحين أفكر في الغثيان، أذكر ذاك الغثيان الذي أصابني قبل أسبوع.. لكنه لم يستمر، إذاً ليس عرضاً.. ماذا عن بعض آلام البطن.. أتكون انتشاراً في الكبد.. لكن وظائف الكبد في آخر فحص جيّدة.. لكن الورم يجب أن يدمر أكثر من ربع الكبد ليؤثر على وظائفه.. لكن ماذا لو كان ألم البطن بسبب سرطان المبايض والذي عادة ما يصاحب سرطان الثدي؟ وهكذا يبقى الحال لدقائق حتى أنام وأنا أتمتم.. رضيت بالله رباً.. رضيت بقضائك يا رب..

وأستيقظ في اليوم التالي وقد نسيت الأمر كله وعدت للعمل والأولاد والحياة. لتعاودني المخاوف في الليلة التالية وأتساءل: متى بالضبط يجب أن أشرك طبيبي في المخاوف لنقوم ببعض الفحوصات (التي لا تخلو من التعرض للإشعاع في أغلب الأحيان)؟.. متى ترقى المخاوف لحد الخطر الحقيقي الذي يستحق اهتماماً أكبر من مجرد التعوذ بالله من الشيطان.. هذا غيض من فيض مما يعيشه مريض السرطان وحيداً. حتى لا يؤلم من حوله بمخاوفه التي تفتح باب نكد لا ينتهي.

سنكون جميعاً بخير

في غرفة الانتظار مع بقية مرضى السرطان بانتظار العلاج الكيماوي التكميلي (سأستمر عليه لمدة سنة أخرى).. عادة لا أضطر للانتظار مع الجميع، بل أدخل فوراً لغرفة الكيماوي الخاصة.. لكن لعل الله أراد اليوم أن يعطيني درساً!

قبل أيام عدت للعمل.. وربما عاد للقلب شيء من عنجهية الأطباء وإن لم ألحظه.. ربما عاد لي اعتقاد «المناعة» و«الحصانة» الذي يشعر به جميع الأطباء، فالأمراض دوماً تصيب الآخرين، ولكن ليس (نحن).

أجلس وسط مرضى السرطان.. منهم من يرتدي الكمامة.. منهم من يحتاج للأكسجين.. منهم من اسودَّ وجهه وجحظت عيناه.. وأبدو بفضل الله بحال أفضل بكثير.. أخجل من شكلي الجيّد وسطهم.. أخجل من قميصي الأحمر وحجابي المزين بالورود الملونة..

لكن لعلي بذلك أعطيهم أملاً.. ستكونون بخير كما أنني الآن بخير.. ستمرُّ الأيام ونكون جميعاً بخير..

والداك كبيران

والداك كبيران في السن.. أبوك في آخر عمره.. كيف تسافر للابتعاث وتتركه وهو في أمسِّ الحاجة إليك..

لا أستطيع البقاء.. هو يريد لي الخير، مستقبلي ينتظرني، زميلي فلان ذهب وعاد «بالشهادة الكبيرة» وأخذ موضعه والكل يتحدث عنه وأنا لم أتقدم خطوة، أريد أن أرقى لمستوى زملائي ولا أشعر أني أقل منهم..

مسكين فلان، فاته معنى كبير، معنى قديم قِدَم الإنسانية نفسها.. معنى أن لا تحشر نفسك في صندوق، وتظن الحياة بوسعها هي فقط هذا الصندوق.. مثال قديم لأبي جهل.. جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم برسالة جديدة عالمية فكان كل ما فكر فيه هو صندوقه العتيق.. صندوق المقارنات.. «كنا نحن وبني عبد مناف كفرسي رهان أطعموا فأطعمنا.. سقوا فسقينا.. ثم قالوا منّا نبي فأنّى لنا بهذه.. والله لا نصدقه أبداً».

لم يستطع المسكين أن ينظر خارج صندوقه.. لو أنه تنازل عن مقارناته الشخصية لنال شرف الدنيا والآخرة.. كان سينال تخليد التاريخ بكونه من الصحابة المناصرين للرسالة وربما كان من الخلفاء وحكم الأرض من بعد.. لم ير أياً من ذلك.. صندوق المقارنات أعماه وبقي محشوراً فيه، وحرمه من خير كثير.

كم يحرمنا صندوق المقارنات من خيرات وكم يوقعنا في مآزق.. فلان كسب كذا وكذا وأنا لم أكسب.. فيقلق ويتوتر ويستدين حتى يلحق بفلان.. وتفوته في هذا السباق فرص كثيرة، أعماه عنها التوتر المحموم ويفوته الاستمتاع بالحياة والسعادة التي كانت ستناله لو لم يعش حياته محشوراً في الصندوق.. منذ الطفولة ونحن نقارن أنفسنا وإنجازاتنا وممتلكاتنا بأقراننا ومنافسينا.. فلان لديه تلك اللعبة.. فلانة أحرزت هذه الدرجات.. فلان اقتنى هذه الإلكترونيات أو تلك السيارات.. فلانة عادت بتلك الشهادات.. فلان أحرز تلك المناصب وحاز ذلك الراتب.

وكم تحرمنا تلك المقارنات من السعادة، وكم تفوت علينا من خير كثير.. وكم تُعمي أبصارنا عن رؤية الحياة الثرية بمفهومها الواسع الذي هو أكبر من أي صندوق وهمي،

نحشر أنفسنا فيه، أو تضطرنا إليه مؤسسة أو وظيفة أو وضع اجتماعي. وصاحبنا الذي ترك والديه في كبرهما ليدخل سباقاً مع زملائه الذين سبقوه وأتوا بالشهادات، لا يدري أن هناك أموراً لا تعوّض، وأن موت والديه في غيابه مع شدّة احتياجهما له قد يبقى جرحاً كبيراً في قلبه لا يلتئم بمئات الشهادات.. وأن مانح التوفيق هو الله ومانح النجاح هو الله وأن صورة النجاح أوسع بكثير من شهادة تملكها بيدك، فكم من أصحاب شهادات لم تزدهم شهاداتهم عن كونها أوراقاً معلقة في بيوتهم من غير أي ثمرة.. وكم من ناجحين وموفقين و«أصحاب ملايين» ومناصب لم يكن لهم من الشهادات نصيب..

لا يستطيع صاحبنا أن يرى كل ذلك.. فهو الآن لا يرى إلا زميله فلان الذي سبقه.. والذي يجب أن يلحقه.. لا يرى سوى جدران صندوقه الضيق.

لكل منا سرعة نمو مختلفة.. وطريقة ظهور مختلفة.. وسباقك مع فلان مع كونه مختلفاً عنك، قد يكون ظلماً لقدراتك الكامنة التي حرمك من اكتشافها تركيزك على منجزات فلان ومحاولة محاكاتها..

ألم تر الأشجار؟! تضع بذرتين في الأرض فتنمو إحداها في أسابيع وتظهر على سطح الأرض، ويراها الناس ويمتدحون سرعة نموها، وتبقى الأخرى في الأرض مخفية تبني جذوراً لا يراها أحد، ويظن الجميع أن لا خير فيها حتى يأتي وقتها وتبدأ بالنمو الراسخ. وتمر الأيام وتأتي الرياح، فتجد النبتة السريعة النمو الضعيفة الجذور فريسة سهلة فتقتلعها الرياح في دقائق.. وتبقى الشجرة التي لم تستعجل الظهور ورسخت بجذورها عميقاً في الأرض ولم تأبه بكلام الناس عن بطئها وقلة إنتاجها، تبقى وتستعصي على كل رياح.. وتعيش لسنين وسنين.. (أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا)، ادفن وجودك في أرض الخمول، فما نبت مما لم يدفن لا يتم نتاجه.

مع ابني في المصعد

مع ابني في المصعد تصعد معنا سيدة.. تطلب من ابني ذي الأربع سنوات أن يضغط على الرقم الذي تريده فيفعل.. فتشكره بحماس وتثني على ذكائه.. ويبقى هو صامتاً.. حتى تصل للطابق الذي تريده ويفتح باب المصعد.. ثم يبدأ ابني بالحديث..

أأأ.. أتعلمين.. اليوم كان عيد ميلادي.. وقد احتفلت به «مس لينزي» معلمتي.. وو حصلت على الهدايا.. وأخذ يقص عليها تفاصيل عيد ميلاده. والسيدة تقف على باب المصعد، وتمنعه من أن يغلق بيدها، وتستمع بكل ذوق لحكاية ابني.. انتهى من كلامه فهنأته على عيد ميلاده.. وتمنت له ولي يوماً سعيداً وانصرفت..

تأملت ما حدث وتخيّلت لو حدث هذا في بلادنا.. لو كانت سيدة على وشك الخروج من المصعد ثم بدأ طفل بالكلام.. هل كانت ستقف له وتعطل المصعد وتنتظر لتسمع قصته حتى لا تحرجه.. لأنها تحترمه كإنسان.

تخيلت لو حدث هذا في بلادنا، وأكاد أجزم أن أحداً لم يكن ليقف ليستمع لهراء طفل، ثم تأملت أكثر.. فأيقنت أنه ما من طفل في بلادنا سيتحدث مع غريب بهذه الأريحية والثقة.. لأنه في بلادنا يلقّن الأولاد أن السكوت هو الفضيلة وأن التحدث «إزعاج».. أذكر في طفولتي .. لم أكن أقدر على الكلام خارج محيط أسرتي الصغيرة وأصدقائي في المدرسة.. مثلاً.. إن جاء الأعمام والأخوال.. فالرجال هم الذين يتحدثون.. ويتوقع من النساء السكوت.. وإن كان اجتماع نساء فهن لسن على استعداد لسماع هراء الأطفال، فترى الأطفال إن حاولوا الكلام لا يعطون أي أذن صاغية، أو يطلب من الإخوة الأكبر أخذهم بعيداً لأنهم «يسببون الإزعاج». لم نتعلم منذ صغرنا أن من حقنا أن نُحترم.. أن يكون لنا رأي وأن نعبر عنه.. وجاءت مدارسنا لتعزز هذا المفهوم.. فيكون الطفل النموذجي هو الطفل الصامت الهادئ الذي لا يناقش ولا يجادل ولا يسمع صوته.

فأين هذا من احترام الإنسان الذي أراه هنا في أمريكا، حيث تخجل امرأة مشغولة، بالكاد تعود لابنها من يوم طويل في العمل، تخجل من مقاطعة حديث طفل لا تعرفه وهو يحّدثها بحماس عن حفلة عيد ميلاده.

كم نتغير؟

أتأمل كم تغيرت شخصيتي على مر السنين، وأعجب من قدرة الإنسان على التحول.. كنت منذ الطفولة شخصية قلقة تسعى للكمال وتقلق كثيراً من ألا تحرزه.. كان الوقت عندي ينظم بالمسطرة والورقة والقلم والدقيقة.. ثم جاء الفكر الديني فزاد ذلك الحرص، وجاءت تربية أمي التي تقدس الوقت والإنجاز فزاد الأمر كثيراً.

في كل يوم كان عندي قائمة من الأعمال تزيد، ولا تنقص، في الإجازة الصيفية قائمة يستحيل على بشر أن ينهيها في يوم، إذ بالكاد تستلزم أسبوعاً وبالطبع لم أكن أقدر على تنفيذ كل ما في قائمتي من أعمال، وبالتالي أعيش في تأنيب الضمير والإحساس بالتقصير كتوأم لروحي لا ينفصل عنها..

كانت قائمة الأعمال التي أعتبرها إنجازاً عبارة عن نوعية معينة من الأعمال، على رأسها قراءة الكتب.. وسماع المحاضرات.. والأنشطة التطوعية، ثم بدأتُ أصبح أكثر مرونة، فأضفتُ صلة الرحم والمساعدة في أعمال المنزل إلى قائمة الإنجاز، لكن تأنيب الضمير بقي ملازماً لي؛ إذ كانت الأعمال دوماً أكثر مما يمكن إنجازه في الوقت المحدد، وكنت مع إحساسي بالتقصير مقتنعة أن الوضع «يجب» أن يكون كذلك، وأن وضع قائمة صغيرة من الأعمال هو من دنوّ الهمة والتكاسل.. وعلى ذلك عشت.. حتى أني أذكر في يوم العيد عندما كنا نفرح معاً - وهو ما لا يحدث دائماً - كنت أصطحب كتاباً أو اثنين معي، وغالباً لا أجد الوقت لأفتحه، ولكن لأريح ضميري، وكان لكل شيء عندي هدف.. أزور صديقتي.. لماذا؟ ما الهدف؟ نذاكر معاً.. نخطط لعمل تطوعي، نذكر الله معاً، وتُحدّد مدة الزيارة على قدر الهدف..

لم تكن هناك زيارة لمجرد الزيارة.. لم تكن هناك «تمشية» لمجرد المرح.. وبقي الحال كذلك حتى خُطبت لأنس.. في البداية لم يكن قراري بالقبول سهلاً، وعليه صار «هدف» فترة الخطوبة هو أن أتبين قراري وأعرفه أكثر.. ولم أكن لأدع الصدف تحدث هكذا بتلقائية.. بل كنت قبل كل زيارة أحضر له عدداً من الأسئلة «العميقة والحكيمة» وأسجل إجاباته جيداً.. وبعد أن يرحل أذهب لغرفتي لأكتب قائمة إيجابياته وسلبياته، وكنت طوال الوقت أسجل تحركاته وتصرفاته.. ويوم يصل متأخراً يعني هذا غياب

الإحساس بالمسؤولية..

وإن جاء بملابس العمل يعني قلة الاهتمام بمظهره أمامي، مما يعني قلة احترامه لي.. وهكذا.. لم أسمح لنفسي بأن أحب.. فالحب بلا تخطيط ليس «عقلانياً».

حتى جاء يوم زارني أنس فيه من غير موعد.. فارتبكت.. ماذا سأفعل في الوقت؟.. ماذا سأقول له؟.. أنا لم أحضّر ولم أعدّ، ولم أقرّر أي المواضيع سنطرح، استقبلته، واضطررت لأول مرة للتكلم بتلقائية.. تجاذبنا أطراف الحديث «العادي».. تضاحكنا.. مزحنا.. وشعرت في تلك الزيارة بأنه صديق جيّد.. وسهل العشرة.. وأنني أستطيع أن أكون طبيعية معه.. وأني لا أحتاج للإعداد.. تقاربنا في تلك الجلسة كثيراً.. وصرت بعدها أكثر انفتاحاً.. ثم جاءت رحلة شهر العسل وقبل الذهاب وكالمعتاد.. وضعت في حقيبتي كل ما يمكن أن أحتاج إليه.. لتحقيق «الهدف من الرحلة».. أخذت ٨ سيديهات، مع أن المنطق يقول إننا لن نستمع لكل ذلك.. وكتاب لألعاب الزوجين/حكم الحياة الزوجية.. وحاولت أن أمنع نفسي من أخذ المزيد حتى لا أضجره..

سافرنا.. فاكتشفت أني لا أحتاج للإعداد والتخطيط، وأن مجرد المشي في شوارع إسطنبول أو انطالية كان مرحاً وسعيداً وممتعاً.. وأني مع شخص بسيط منفتح «طبيعي».. ومرّت الأيام وتعلّمت أشياء كثيرة.. وتخلصت من عقد كثيرة.. لم أعد أحتاج للنظر في الساعة ٥ مرات لأتأكد أن الوقت كاف للإنجاز التالي.. بل مرّت عليَّ أيام لم أرتد فيها الساعة أو أنظر إليها.. صار بإمكاني أن أخرج من غير أن أقرّر إلى أين سأذهب.. ثم أقرّر معه ونحن في السيارة.. صار بإمكاني أن أنظر للوقت الذي ألعب فيه مع أولادي.. لعباً بغير أي «قيمة علمية» أن أنظر له كإنجاز في حدّ ذاته.. ورغم أن التخلص من عادات مررتها الجينات وغرستها التربية ليس سهلاً.. إلا أنني أحاول.. ولا زلت أتغيّر كل يوم.

كيف نتحمل الألم؟

في هذه الفترة أعاني من ألم العظام نتيجة انتشار الورم فيه.. لا زلت أمشي على قدمي لكن كل خطوة تحمل الخوف من احتمالية كسر عظمة هنا أو هناك.. أحاول الهروب من همّي بكتب السيرة، فأجد فيها ما أحتاج وزيادة.. كم كان صحابتنا يتعاملون مع الحياة برمّتها ببساطة.. (ليس بيني وبين أن أدخل الجنة إلا أن يقتلني هؤلاء، ويرمي التمرات من يده ويذهب ليُقتل).. (إني لأجد ريح الجنة دون أحد ويمضي فيُستشهد).. (في اليرموك يفقد أحد المقاتلين عينه بسهام العدو، فيعود لآخر الجيش فيخبرهم بالخطر الذي يتهدد المسلمين من هؤلاء الرماة فيربط عينه، وينطلق للقتال ثانيةً وكأن شيئاً لم يكن) أين الأسى على عينه الفقيدة.. على أنه سيعيش أعور ببقية عمره.. أين الضغوط النفسية بعد الإصابات الجسدية) PTSD (Post Traumatic Stress Disorder؟ أين الخوف من العودة لموقع المعركة ثانيةً حتى لا تتجدد الذكريات؟ لا شيء.. بمنتهى البساطة ربط عينه وعاد للقتال.

أما القصة التي لا أكاد أصدقها لولا وجودها في كتب السيرة، فهي عن صحابي بُقرت (قطعت) بطنة في القادسية فصاح في المسلمين بعد أن سقطت أمعاؤه على الأرض: رحم الله امرأً أعانني وجمع معي أمعائي، فساعده أحد المجاهدين في جمعها فجمعها في بطنه ووضع يده على الجرح وأمسك السيف باليد الأخرى وعاد للقتال..!!!!.

من ضيق الجسد إلى انطلاق الروح

تتطلب المرحلة الكثير من اليقين.. إنه اختبار اليقين لأقصى مداه.. وكم أخشى الفشل.. أتألم وأريد أن أقرأ الذكر المأثور «ربّ الناس أذهب الباس».. لكنني أخشى عدم الجدوى فأقلع.. نعم الله قادر.. لكني من قبل دعوته بكل قلبي.. قبل أن آخذ الكيماوي.. أن لا يدع الله أي خلية خفية في أي مكان إلا وقضى عليها.. ربما لا يجب أن أدعو.. لكني أعود فأذكر أن المرحلة الثانية من المرض وإن كانت أقسى بكثير.. أقسى من غياب الأمل.. غياب الرؤية.. ضيق الطريق.. ضيق أو انعدام الخيارات.. وإذا كانت هذه المرحلة ثقيلة على قلبي بكل المقاييس.. وصار لدعاء (يا مغيث أغثني) معنى آخر.. فأنا أشعر بصدق أني على وشك التحلّل والفناء لولا يد الله القادرة.. فهي قد صنعت في قلبي عجباً.. بصدق خرجت الدنيا من قلبي وصارت الآخرة قريبة جداً.. وصار حلماً جميلاً أن أجتمع بالأولياء والصالحين في كل زمان ومكان، حيث أتحرر من ضيق الجسد، وتنطلق الروح حيث شاءت.

أغلى ما في الدنيا عندي.. كان العمل الأكاديمي.. كان الزمالة والطب النفسي.. ولأول مرة أجد نفسي غير مستعدة للجهاد لأجله لآخر يوم في عمري.. أرفع يدي وأقول يا رب.. زهدت فيه فافعل ما تشاء..

فلله طرائق بعدد أنفاس الخلائق.. ولعل هذا الباب لم يكن لي.. (رغم قناعتي العقلية أني قد فُصلت للطب النفسي تفصيلاً، وهو ما سمعته من أساتذتي ومرضاي وزملائي على حدّ سواء) لكن ربما ليس هذا طريقي للجنة.. ربما يريد الله لي طريقاً آخر أقصر وأنفع وأخلص.. أو ربما ليس هذا هو الوقت، ربما يريد الله أن يهدّ كل رغبة في قلبي.. ليبني بعد ذلك بنياناً آخر على تقوى من الله ورضوان.. بدلاً مما بُنِي على شفا جرف هارٍ..

أعدّ خروج الدنيا من قلبي إنجازاً كبيراً.. إنجازاً لم أحققه لنفسي، بل حدث (بيد الله الخفيّة) بفعل البلاء وقرب الموت.. وضيق الحياة.. لعل هذا هو الدرس.. ودرس آخر: أن تكون في البلاء ولا يخلو قلبك من حب الناس والرحمة بهم.. والإشفاق على مشاكلهم، والدعاء لهم، والاهتمام الصادق بهم، وإن بدت مشاكلهم بالنسبة لمشكلتي

«سخيفة».. أن أتعلّم أن لا أحتقر أي معاناة، لأي سبب كان، ولو كانت بعض العلاقات مع زملاء العمل، أو بعض المشاكل مع أهل الزوج.. فالعبرة بمقدار المعاناة في قلب الإنسان، لا بحجم المصاب..

وأنا متأكدة أني لو استطعت الخروج من همّي الشخصي للهمّ العام (وليس هذا سهلاً عليّ، خاصة مع الآلام والجهد اللذين يقعداننني في السرير أحياناً، إن استطعت ذلك لشُغلتُ عن ألمي ومصابي، و لتدفق ينبوع الحياة في قلبي، ولرفرفت روحي سعادة وحماسة).

الدعاء مستجاب ولو بعد حين

مع صديقة لي لم أرها منذ سنوات، نتجاذب أطراف الحديث.. وتحكي لي عن حياتها.. وأجد في وسط كلامها عن خرجاتها وتمشياتها مع «ماما».. كيف يفرحون بعمل وصفات صحيحة معاً.. كيف تناقشان شؤون الحياة معاً.. كانت تحكي ضاحكة ودهشتي تزداد.. فصاحبتي هذه كانت لسنين تعاني من مشاكل مع أمها.. تذكرت كم من المرات التي اتصلت بي فيها وهي تبكي بسبب مشاجرة تلو مشاجرة مع أمها.. وما زاد الطين بلّة هو شعورها المؤلم بالذنب بعدها، وأن الله لن يقبل لها عملاً ولن يوفقها في عمل أو حياة.. وأنها لن ترزق إلا بأبناء عاقين.. كانت تدعو وتدعو كل ليلة.. وفي مرة اتصلت بي وهي تقول.. أنا لا أصدق.. دعوت الله بكل ما أوتيت من قوة.. دعوت وكنت أعلم أن الله يسمعني.. قمت من الدعاء بارتياح غريب.. ولكن لم يأت اليوم التالي حتى حدثت أسوأ مشاجرة بيني وبين أمي.. أسوأ مشاجرة في الحياة.. أنا لا أفهم.. سرح فكري مع تلك الذكريات لدقائق ثم سألتها.. هل ستسمحين لي أن أسأل سؤالاً؟ ألاحظ من كلامك تغيراً نوعياً في علاقتك مع أمك.. كيف حدث هذا؟ قالت: بصدق لا أدري أنا أيضاً، لاحظتُ التغير الذي جاء تدريجياً لكني لا أدري كيف حدث.. منطقياً لم يكن من الممكن أن يحدث أي تغيّر. شخصياتنا جداً متناقضة ولا يمكن أن تتفق؟ أنا متعجّبة مثلك تماماً..

أما أنا فلست متعجّبة.. أنا أعرف تماماً ما الذي حدث.. إنه دعاؤك الذي سُمع ولم يُنس.. أظننتِ أن تلك الدعوات سارت هباء؟. أظننتِ أن تلك الدموع وذلك الرجاء ليس لها عند ربكِ وزن؟. هذه هي معجزة الدعاء وهذا هو الصبر الذي أُمرنا به عند تأخر الإجابة!!. المشكلة أن الإجابة لا تأتي في حفلة كبيرة بعد ارتفاع الستار وسط تصفيق.. بل تأتي بهدوء خطوة خطوة كل يوم.. كل يوم زخّة مطر.. كل يوم قطرة نحو الأفضل.. فلا نكاد نلحظها، وحين تكتمل الصورة كما كنا نتمناها يأتي الشيطان ليُنسينا كل شيء.. ينُسينا كَم دَعونا.. ينُسينا كيف تغيّر الحال.. يقول هي صدفة.. بل أوتيته على علم.. بل انظر إلى مشاكلك الأخرى التي لم تحّل بعد.. ويبعدنا تماماً عن لحظة امتنان نقول فيها بصدق (شكراً ياربِّ أنت فعلت ذلك..أنت أجبت دعائي وإن تأخر)..

وهذه هي خلاصة علاقتنا بالله.. وخلاصة امتحان الدنيا.. الشكر والامتنان.. ولهذا ركز عليها الشيطان.. (قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ) (ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ).

لا تتوقف عن الدعاء مهما حدث

يقع أيّ منا في محنة أو كرب فيهرع إلى الله بالدعاء.. فما لنا سوى الله نلجأ إليه.. ندعو وندعو ونتصور أن الإجابة ستأتي دراماتيكية تماماً.. سأفتح عيني غداً لأجد المشكلة قد انتهت.. ستحصل مشكلة مرة واحدة وسيتغيّر كل شيء بقدرة الله وليس ذلك على الله بعزيز.. لكن ما يحدث غالباً ليس كذلك.. فالدعاء نفسه هو من ابتلاء الله للعباد.. هو اختبار الصبر، واختبار الثقة، واختبار اليقين، تدعو اليوم فتتأزم الأمور أكثر غداً، ولا يحدث شيء.. فإن كنت من أهل المَلَل واليأس تركتّ الدعاء وقلت لم ينفع.. وإن كنتّ من أهل الصبر واليقين واصلتَ الدعاء..

وتُواصل الدعاء ويبدأ الغيث، وينزل قطرة قطرة.. ولا تكاد تستوعب أن القطرات مرتبطة بالدعاء.. وأن فلاناً سخّره الله تسخيراً.. وهذا الذي أتاك من حيث لا تدري هو إجابة الدعاء.. تتغيّر الأمور وتنصلح الأحوال ونتوقف عن الدعاء بغير أن نلحظ.

ويلعب الشيطان لعبته الشهيرة بذكاء.. لعبة (وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ).. ينسيك أنك دعوت.. ينسيك أنه أجاب.. يشغلك بالمشاكل الأخرى.. حتى لا تشعر أن علاقتك مع الله هي التي تنجيك، وهي الأسمى من أي علاقة أخرى.

عندما عدت من أمريكا مُرسلة من الأطباء (لأدبّر أمور أولادي قبل أن أرحل) كنت مريضة جداً.. آلام شديدة طوال أربع وعشرين ساعة، وكل فكري أي مسكّن سآخذ الآن؟.. غير الأنيميا الحادة ونقص الصفائح، والخوف من النزيف، ونقص المناعة، والخوف من الالتهابات.

كانت فترة عصيبة دعوت فيها دعاءً كثيراً.. بالتدريج خفّ الألم فتخلصت من المسكنات جميعاً، وانتظمت في الكيماوي، وبدأ المرض يستجيب له شيئاً فشيئاً، فهل كنت في تلك الفترة حقاً شاكرة؟ الحقيقة لا.. فالآلام توقفت بتدريج بطيء لدرجة أني لم ألحظ اختفاءها إلا يوم سألتني صديقتي عن المسكنات التي أخذتُها فأخبرتُها أني لا آخذ شيئاً.. عندها فقط تذكرتُ أن أشكر الله أن أزال عنّي الألم.

ولكني بقيت أحمل همّ جلسات الكيماوي، واحتياجي لنقل الدم كل جلسة ونقص الصفائح والإرهاق المستمر. بقيت أحمل همّ ما بقي من آثار المرض، حتى أنساني أن أشكر الله صدقاً على عطائه.. ولم أذكر إلا بعد أن تدهورت حالتي ثانيةً وعادت الآلام، ولم يعد المرض يستجيب للعلاج، بل انتشر في أماكن جديدة، وبدأ التخريب فيها.. أذكر الآن وعد إبليس (وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ).. هذا هو البلاء، وعليه يجب أن نعمل.

عدت للعمل بعد انتشار المرض في كل جسمي

في أول يوم أعود فيه للعمل بالعيادة النفسية بالسعودية بعد انتشار المرض.. كان أكبر تحدٍ لي.. ويا للعجب!!!

هو أن أرتدي البالطو الأبيض.. وددتُ لو أستطيع الذهاب بالعباية.. شعرت أن ارتداء البالطو الأبيض كذبة كبيرة.. شعرت أنه من سخرية القدر أن أرتدي أنا التي أعاني من سرطان منذ شهور يوقفني على أبواب الموت.. أن أرتدي رداء الطبيب المعالج.. وكأني قوية معافاة.. وكأني أتدثر بكبرياء الأطباء واعتقادهم الأخرق بالقدرة.. القدرة على جلب الشفاء.. ارتديتُه وذهبت وأنا أخاطب داخلياً كل من أرى.. لستُ كما تظنون.. لا تخدعكم الصورة.. لا يغرنّكم المظهر.

جسدي وروحي

عندما أفكر في جسدي المسكين.. الذي تعرض للكثير.. للمرض ثم استئصال الثدي ثم الكيماوي ثم الولادة ثم الإشعاع.. ثم انتشار الورم في كل مكان ثم الكيماوي مجدداً.. الأنيميا.. نقص الصفائح.. نقص المناعة.. أتساءل: هل يمكن أن يعيد المسكين بناء نفسه؟ هل يمكن أن تكون صحتي كأني ثلاثينية.. ثم يأتي إحساس غريب بانفصالي عن هذا الجسد، فما هو إلا مطيّة.. ربما يكون الجسد مريضاً.. لكني أشعر بعافية داخلية.. روحي بخير.. بل هي في أحسن أحوالها.. وهل أريد الجسد إلا ليبلغني المنزل.. هو ليس إلا قارباً تركبه روحي لتعبر في نهر الدنيا المضطرب.. لتصل للضفة الأخرى.. فما يُضير لو أن القارب خُدش أو جُرح أو زال طلاؤه وشُوّه.. هل أحمله معي إلى الضفة الأخرى.. لا.. بل أدعه وتمضي روحي وحدها للعالم الآخر.. فما دام الجسد ليس إلا مطيّة فعلام القلق!!.

كم سعدت بحبّكم ودعواتكم

اليقين عندي يزيد وينقص.. وأنا الآن في أفضل أحوالي.. منذ فترة عاد المرض في عظامي، فأقلقني وشعرتُ بالأبواب تغُلق في وجهي، وأني أسير في ممرّ مظلم يزداد ضيقاً كل يوم، حتى يكاد يطبق عليَّ، لم أر مخرجاً واكتأبت..

ثم شاء الله في يوم ميلادي أن تفاجئني صديقاتي بكم من الدعوات.. وضعن كل الدعوات على بالون هيليوم لأقرأها ثم نطلق البالون في الهواء لتصعد الدعوة إلى ربها.. كانت الدعوات تحمل معاني عجيبة.. «كنت دائماً أراك وعاءً لنوره تفيضين به على الناس كافة».. «أراك تدلّين الناس على الله من باب الطب النفسي».. سمعت تلك الأمنيات والدعوات وتعجّبت.. شعرت أني لست كذلك، أو لم أعد كذلك، لكنها أضافت في نفسي شيئاً، ثم كان المنّ الكبير من الله أن أعطاني القوة كي أذهب للعيادة، هناك حيث أرى المرضى وكم كان إحساساً بالنشوة، ارتدّت فيّ الروح.. كان قلبي يدق حماساً وشوقاً وحبّاً مع كل مريض.. كم أعشق الطب النفسي!.. كم أعشق الاستماع لمريض يتكلم عن هلاوسه، فأرى عجيب صنع عقل الإنسان، حين يحدث اختلال بسيط في كيمياء الدماغ.. كم أعشق أن نجلس أنا والمريض نتحسس موضع الألم داخل نفسه.. ونبحر معاً في العمق نحاول أن نجد مصدره ونعرف كنهه.

ما أعظم حظ (وكبر مسؤولية) الطبيب النفسي؛ إذ يفتح له مرضاه أسرار دواخلهم، فيسير معهم في دهاليزها بمصباح علمه وخبرته.. لينير لهم دهاليز أنفسهم فيروا ما لم يكونوا يبصرون.. بعد العيادة.. كنت أود أن أحتضن كل شيء وكل أحد.. شعرت بقوة بأني أريد أن أعيش.. يا رب.. أريد أن أعطي.. أريد أن أخدم.. لديّ الكثير لأعطيه.. يا رب أنت لم تعطنيه عبثاً.. ولا شك الآن أنك أعطيتني المرض بكل قوته.. وخوفه وألمه.. لأكون أقدر على فهم الخوف.. والألم.. والحزن.. ليكون الإحساس أعمق.. والفهم أعمق.. يا رب.. أنا أرى حكمتك.. وأنا واثقة فيك.. وإن عجز الطبيب، فإنما بك وحدك أقهر هذا المرض.. وأدعه خلفي، لأنطلق وأعطي خلقك كما أعطيتني.. يا رب.. بك أصول.. بك أجول.. (فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى).

د. محمد علي البار

نور هي آخر العنقود، سبقتها ثلاث أخوات وأخ.. بفضل الله تعالى جميع البنات حفظن القرآن الكريم، وحفظ علي أجزاء طيبة منه. وكانوا جميعاً متفوقين في دراستهم ومتمسكين بدينهم وما يدعو اليه.

كانت نور منذ طفولتها الباكرة عقلانية بفضل الله وكرمه، وأذكر ثلاث حوادث عندما كانت في الخامسة من عمرها:

الأولى: كنا جلوساً في شرفة المنزل وبدأت السماء تمطر وكانت أختي الكبرى معنا فقالت:

صبَّي صبَّي لبن لبن

العيد روس دخل عدن

وهي تشير إلى حكاية كانت رائجة في الأجيال السابقة، وهي أن (الإمام أبو بكر بن عبد الله العيد روس عندما دخل عدن عام ٨٨٩هـ وتوطنّها أمطرت السماء لبناً. (وهي حكاية تدلّ على فرح أهل عدن بمقدم العيد روس العالم الجليل والرجل الكريم بلا حدود).

فالتفتت نور لعمتها وقالت: لبن لبن!!؟

فقالت العمة: نعم هذه كرامة. اسألي أباك؟

فالتفتت إليّ نور متسائلة: فقلت لها: ما رأيك أنت؟

ففكرّت قليلاً، وقالت: خرافة. فضحكت واحتضنتها.

وفي الروضة المتقدمة سألت المدرسة التلميذات: كل واحدة تخبرني عن أي عضو مزدوج في جسمها وبادرت التلميذات: العينان.. الأذنان.. اليدان.. الرجلان.. الشفتان، وجاء الدور على نور، ولم تجد أمامها الأعضاء المزدوجة فقالت: القلب. فقالت المدرسة: القلب واحد يا نور، فقالت نور: لا يا أبلة هناك بطين أيمن وبطين أيسر.. وصكت الأبله رأسها تعجباً. من أخبرك بهذا يا نور؟ أبوك طبعاً. قالت: لا ولكني سمعت أخواتي (وهن يكبرنها ببضع سنوات) وعرفت ذلك منهن.

وفي إحدى المرات كنت أسوق السيارة ومعي نور في الكرسي الخلفي، وجاءت إشارة صفراء فعبرت دون توقف، وبعد مروري بثوان تحولت إلى حمراء، فصاحت نور: يا بابا أنت قطعت الإشارة.

وكانت نور على حق، فالإشارة صفراء وفعلاً تحولت إلى حمراء بمجرد مروري بها. وضحكت معها، وقلت لها: أنت شرطي مرور ممتازة.

ما إن وصلت نور إلى أواخر المرحلة الابتدائية، إلا وكانت قد التهمت كتب أحمد باكثير.. وقرأتها في المرحلة المتوسطة مراراً، وخاصة (ملحمة عمر) ثم انطلقت منها إلى الآداب العالمية: تشيخوف، دستوفسكي... إلخ. ومعها كتب مصطفى محمود وخالد محمد خالد وعمرو خالد... إلخ. كانت مثل أبيها وأمها وأخواتها مولعة بالقراءة وزادت عليهم شغفاً بها.

وكانت خطتنا أنا وأمهم أن لا نستخدم الدروس الخصوصية. ونكتفي بالمدارس الحكومية مع مساعدتنا لهم، وخاصة في المراحل الأولى من الدراسة. وبفضل الله سبحانه وتعالى كانوا دائماً متفوقين في جميع مراحل الدراسة.

وكنا نترك لهم اختيار الكلية التي يريدون الالتحاق بها بعد جلسة مشاورات.. ولم نكن نفضل الابن الوحيد على أخواته، وبطبيعته كولد كان يريد أن يفرض نفسه عليهم، ولكنه وجد حزماً في أن ذلك ليس له.

وفي الجامعة كانوا جميعاً متفوقين في الدراسة، بل ونالت ثلاث من البنات لقب الطالبة المثالية في الجامعة ومنهن نور، التي كانت مثل أخواتها، الأولى في دفعتها، والشكر والحمد لله على نعمه التي لا تعد ولا تحصى. اللهم اجعلنا من الشاكرين الذاكرين.

وبفضل الله سبحانه وتعالى تربى الجميع على الصدق والأمانة وحب الله وخشيته، وساعدنا على ذلك مجموعة من الأخوات السوريات الفاضلات فجزاهن الله عنا خير الجزاء. فكانت دروس القرآن والسيرة والقدوة خير حافز للجميع.

وتزوجها زميل لها في كلية الطب. وسافرا في بعثة إلى كندا، وجاءت ظروف حمل وولادة فاضطرا للعودة إلى جدة.. ثم بعد فترة عادا إلى الولايات المتحدة التي تفرض امتحانات قاسية متعددة قبل الالتحاق بالدراسات العليا. ونجحا في ذلك بفضل الله. ثم حدث حمل وورم في الثدي كما تقصه علينا نور بأسلوبها النوراني البديع..

وتكلمت معها ثم سألتها عما تنوي أن تصنع بالحمل وخطورة العلاج الكيماوي عليها، فأخبرتني بأن هناك بعض الأدوية التي لا تؤثر في الحمل، ويمكن استخدامها، وكنت قد قرأت مقالات علميّة في هذا الموضوع الشائك. بل وكانت لدينا حالة في المركز الطبي الدولي وكان استشاري الأورام يرى الإجهاض، واستشارية النساء والولادة ترى أن يتم الحمل طالما كانت الحامل راغبة في مواصلة الحمل. وبعد اطلاعي على الأبحاث وافقتُ الاستشارية رغم أن الحمل كان قبل المائة والعشرين يوماً التي حددّها الرسول صلى الله عليه وآله وسلم في الحديث الذي أخرجه الشيخان عن ابن مسعود عن نفخ الروح في الجنين والذي سار عليه علماء الإسلام.

وهناك فتاوى واضحة بجواز الإجهاض حتى بعد المائة والعشرين يوماً، إذا لم تكن هناك وسيلة أخرى لإنقاذ الأم سوى بإجراء الإجهاض وتناول المواد المشعة والمواد الكيماوية الخطيرة. وشرحت لها تلك الأحكام.

قلت لنور: صلي الاستخارة. ثم سألتها بعد ذلك فوجدتها قد مالت إلى مواصلة الحمل وأخبرتني أنها فتحت المصحف فوجدت أمامها قوله تعالى (أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْساً بِالْأَمْسِ).

فقلت لها فوراً: انتهى الأمر، وتوكلي على الله وسيجعل الله لك فرجاً ومخرجاً.

وجاءت مريم سليمة بفضل الله تعالى وقرة عين لنا جميعاً مع أخيها أحمد.

في هذا الكتاب الذي بين يديك كتبت نور خواطرها وأفكارها بعد تجربة مع مرض السرطان المتقدم والمتسارع مع وجود حمل.. واستطاعت نور بإيمانها القوي أن تعطينا جميعاً درساً في الإيمان واليقين، وأن تشعر بأن روحها تتألق وتشتاق إلى لقاء الله ولقاء الأحباب محمد وصحبه.. وأن تترك الدنيا وهي تشعر أنها مغمورة بكرم الله وحبّه.. وأنها ستنتقل من دار العناء إلى دار السعادة والحبور في مقعد صدق عند مليك مقتدر.

فالله يرفع مقامك عنده يا نور فكم من ألق الإيمان ونور الرحمن كان مددك في محنتك التي تحولت بفضل الله إلى أعظم منحة.

المرض وتعزيز الحياة الإيجابية

عبدالله أحمد السياري
أستاذ الأمراض الباطنية
جامعة الملك سعود بن عبدالعزيز للعلوم الصحية - الرياض
ورئيس قسم أمراض الكلى وزرع الكلى مدينة الملك عبدالعزيز الطبية - الرياض
ورئيس لجنة أخلاقيات الطب في مدينة الملك عبدالعزيز الطبية
ورئيس تحرير المجلة السعودية لأمراض الكلى وزرع الأعضاء.

من خلال تجربتي الطويلة كطبيب، تبين لي أن ردود فعل المرضى عندما يُبلغون بأن لديهم مرضاً خطيراً يحتمل منه أن يحد من بقائهم على قيد الحياة، تكون مختلفة اختلافاً واضحاً بين شخص وآخر، ويصعب التنبؤ بها. وقد وجدت في هذا التباين في كيفية التعامل مع حدث كهذا بين المرضى أمراً ملفتاً للنظر، حريّاً بالتأمل فيه.

إلا أن هذا التباين ليس مفاجئاً أو غريباً، إذ هو يعكس الاختلافات الواسعة في طبائع الناس وسماتهم الشخصية ونفسياتهم وعقلياتهم ومعتقداتهم.

ومن الواضح أن العديد من العوامل الديناميكية النفسية والاجتماعية والمعرفية والفكرية المعقدة تتفاعل مع بعضها بعضاً عندما يُبلغ الإنسان بأن حالته الصحيّة في وضع خطير، وبالتالي تتباين ردود الأفعال نتيجة لذلك.

لقد رأيت شرائح مختلفة من هؤلاء عند إبلاغهم بأنهم يعانون من مرض خطير، فمنهم من يصابون باكتئاب شديد، كما رأيت أولئك الذين يتقبّلون خبراً كهذا ويتكيّفون معه، و شاهدت من ينسحبون من الحياة ويعتكفون بعيداً عن الناس.. ثم إن هناك من ينتابه غضب شديد وعدوانية تجاه كل من هم حوله بما في ذلك أفراد عائلته والمقربين إليه من الناس.

وتبقى فئة قليلة استثنائية في ردة فعلها عندما يخبرون بأنهم يعانون من مرض خطير يهدّد حياتهم.. هؤلاء يستخدمون هذا الوضع الشديد الوطأة لاكتشاف المزيد عن أنفسهم وإلقاء نظرة على الحياة والناس والأمور والأشياء بطريقة جديدة ومنعشة ومختلفة لم يجربوها أو يفكروا فيها أو عنها أو بها أو تخطر لهم على بال في ما مضى من الأيام.

وبعبارة أخرى.. هم يقومون بتحويل هذا الحدث المؤلم إلى تجربة ثريّة لتعزيز الحياة الإيجابية عنهم وبذا ـ وبطريقة غير مباشرة ـ فإنهم ـ إذ يفعلون ذلك ـ فإنهم يعينون أنفسهم على تحمّل المرض وتبعاته ويتكيفون معه.

ضمن هذه الفئة تأتي الدكتورة نور البار التي تصف تجاربها في هذا الكتاب الرائع.

هناك ندرة واضحة جداً في الكتابات عن مثل هذه الحالات من قبل المرضى أو الأطباء المسلمين. وعلاوة على ذلك قلما نجد سرداً لتجربة من هذا النوع يروي روايات عن التجارب العاطفية/المعرفية عن أحوال كهذه في الأدب العربي عموماً.

هذا الكتاب للدكتورة نور البار يملأ هذه الفجوة بشكل جميل ومقنع..

لقد وجدت في ما كتبته الدكتور نور البار صدى لديَّ ولا سيما مع اهتماماتي في الأخلاقيات الطبيّة وتدريسها لطلاب الطب والأطباء المقيمين، ولذا فقد وجدت في قراءة هذا الكتاب متعة واستفادة كبيرتين.

ماهو بالفعل ملفت وجوهري حول صياغة وسرد تجربتها، أن الدكتورة تحكي حكايتها من منظورها كطبيبة، وكذلك من منظورها كمريضة أيضاً.

عندما علمت بأن لديها سرطان الثدي في حالة متقدمة ـ كانت سيدة شابة تخرجت حديثاً كطبيبة وكانت وقتها حاملاً ـ في الأسابيع الأولى ـ بطفلها الثاني، إلا أنها قرّرت الاستمرار في الحمل. وتصف بطريقة حسّاسة وبشكل رائع السبب في أنها اختارت الاستمرار في الحمل ـ على الرغم من أنه لم يكن مخطّطا له في الأصل ـ وعلى الرغم من المشورة الملحة من الأقرباء والأصدقاء بحسن نية منهم بأن تجهض جنينها.

هذا كتاب مدهش كتب بطريقه سلسة بشكل قصصي من كاتب متمكّن. وسيجد القارئ في هذا الكتاب رسالة موضوعية وجوهرية في كل صفحة منه.

الكاتبة، على الرغم من صغر سنّها، لديها فَهمٌ مذهل بالطبيعة البشرية التي تتجلى من خلال صفحات الكتاب. وقد تكون خلفيتها في الطب النفسي السبب لذلك، إلا أني أجزم أن السبب الرئيسي لفهمها للطبيعة البشرية يعود إلى حد كبير إلى الطريقة التي ترعرعت وتربّت فيها في كنف والدين محبين وحكيمين.

تتحدث المؤلفة بحساسية واضحة وفهم ذاتي عميق، عن ديناميكية الاتصالات بين المريض الطبيب (جيّدها وسيّئها)، عن استقبال (من المريض) وإفشاء (من الطبيب)

الأخبار الطبية المؤلمة.

وهنا هي تسهب في سرد مشاعرها الداخلية والأفكار التي دارت في خلدها وباستمرار وإلحاح عندما تلقت هذه الأخبار السيئة المدمرة بأنها مصابة بسرطان متقدم، وكان ذلك في أرض أجنبية بالنسبة لها جغرافياً وثقافياً.

والملفت فعلاً هو الطريقة التي تشرح بها للقارئ رحلتها الشاقة لاكتشافها الخاص وفهمها عن وحدة المسعى البشري والتشابه بين البشر والثقافات في أوقات الفجيعة.

وتكتب كلمات مليئة بالعاطفة والامتنان عن كيفية دعمها المعنوي من قبل أناس من مختلف الأديان والإثنيات ومختلف أنماط الحياة والعادات الاجتماعية.

يتبيّن جلياً بين ثنايا كلماتها بأن الأمل والتفاؤل كانا مصدرين قويين لرفع معنوياتها وقت الحزن والأسى. الكتاب مليء بإشارات إلى معنى وتأثير الأمل في رحلتها نحو التعامل والتكيّف مع هذه الأخبار السيئة.

على امتداد الكتاب، يمكن للقارئ أن يشعر بل ويعيش عمق اعتماد الكاتبة الشامل على الإيمان العميق لديها في الله في دعمها برحلة المعاناة التي خاضتها.

وتصف بأسلوب ساحر كيف أن هذا المرض جعلها أقرب إلى الله، وبطريقة أكثر مباشرة مما تعوّدت أو عوّلت عليها قبل مرضها.

سيكتشف القارئ من خلال السرد القصصي البارع الذي استعملته الدكتورة البار في كتابتها، كيف أنه من الممكن تحويل حدث محزن مدمّر إلى رحلة استكشاف واكتشاف الذات، رحلة حبلى باستكشافات جديدة عن العلاقات الإنسانية وبصورة أكثر وضوحاً وتجلياً، إلى استكشاف وإعادة تقييم علاقة الإنسان بربه.

هنا، في صفحات هذا الكتاب، الكثير والكثير من الرسائل الأخرى الرائعة.

وباختصار، تصف الكاتبة بطريقة بسيطة وبشكل مثير للدهشة ولكنه جذاب للغاية، كيف حولت تجربتها المحزنة والمقلقة إلى أمر إيجابي، وكيف جعلت تجربتها هذه منها طبيبة أفضل، وأماً أفضل بل وإنساناً أفضل.

هذا الكتاب هو بالفعل من أجمل الأمثلة (للطب السردي) باللغة العربية. و(الطب السردي) هو مجال اختصاص أكاديمي نام حديث يُعنى بالتفاعل بين (العلوم الإنسانية) و (الطب).

الأفكار والرؤى التي عبرت عنها الدكتورة البار في هذا الكتاب، ذكرتني باقتباس من البروفيسورة ريتا شارون من جامعة كولومبيا وهي رائدة بارزة في (الطب السردي) ـ اقتباس أراه يعكس محتوى وهدف كتاب الدكتورة البار.

كتبت البروفيسورة شارون «يحتاج المرضى إلى أطباء بإمكانهم أن يفهموا أمراضهم، ويعالجوا مشاكلهم الطبيّة، ويرافقوهم في رحلاتهم مع المرض وتبعاته».

آمل أن هذا الكتاب ستتمّ ترجمته إلى لغات أخرى، ليس فقط لأنه سيكون مفيداً للغاية للأطباء غير المسلمين الذين يقومون برعاية المرضى المسلمين في المجتمعات التي هم أقليات فيها، ولكن أيضاً، وهذا هو الأهم ـ لأنه يعبّر عن المساعي البشرية والطبيعة الإنسانية لدى المرضى المصابين بمرض خطير، وذلك من شأنه أن يكون مفيداً لطلبة الطب والأطباء تحت التدريب وكل من يعملون في المجال الصحي.

وفوق كل شيء سيكون مصدراً للراحة والدعم والمشورة النفسية والمعنوية للمرضى الذين يعانون من أمراض خطيرة، خاصة السرطان، وكذلك لأقاربهم وأصدقائهم وكل من يتعامل معهم..

سأقتني بالتأكيد العديد من نسخ هذا الكتاب عند نشره، حتى أستطيع أن أستخدمه بمثابة مثل حي مع سيناريوهات واقعية أرجع إليها عندما أقوم بتدريس الأطباء المقيمين وطلاب الطب حول القضايا الأخلاقية، وكذا القضايا المهنية و(التقمص العاطفي).

قصيدة الدكتور شهاب غانم

دمعة على الدكتورة نور محمد علي البار ـ يرحمها الله ـ

أبكيتني يا نور.. أبكيتني

بسردك المنكسر المؤمنِ

وأنت والله لأنموذجٌ

لبنت حواء مدى الأزمنِ

حفظت فرقان الهدى كاملاً

في مطلع العمر الجميل الهني

وكنتِ أولى دائماً دائماً..

في كل عام بهجة الأعينِ

لوالدٍ قد كان أيضاً كذا

طفلاً، وحتى اليوم لم ينثنِ

وبعدها أصبحت دكتورة

مخلصة.. أصيلة المعدنِ

وحين جاء الداء قابلته

بمهجة المستسلم المؤمنِ

أسكنك الله بفردوسهِ

وهل كما الفردوس من مسكنِ

وصبر الأهلين في فقدهم

وكرر الحمد على الألسنِ

مقالات
الأستاذ الدكتور
زهير السباعي

حكاية طبيبة تصاب بالسرطان وهي حامل

الطبيبة هي المرحومة الدكتورة نور ابنة الصديق والزميل الدكتور محمد علي البار. توفاها الله إلى رحمته منذ أسابيع مضت ولم تتعد الثالثة والثلاثين من عمرها بسرطان الثدي وهي تكمل دراستها العليا في الطب النفسي في أمريكا. أثناء صراعها مع المرض وضعت كتاباً (رحلة البحث عن معنى) تحكي فيه قصتها مع السرطان، وتصف مشاعرها حيال ما حولها من أحداث ومن حولها من بشر.

قدرت وأنا أتصفح كتابها أني سوف أشير إليه في حلقة واحدة من «في ركني»، ولكني وجدت نفسي أستطرد في الكتابة عنه في أكثر من حلقة، لما وجدت فيه من لمسات إنسانية ومن عظة وعبرة للقارئ. إنسانة تواجه الموت بشجاعة وتسليم بقدر الله.

في مقدمة الكتاب يذكر لنا والدها د. محمد علي البار أنها حفظت أجزاء من القرآن وهي بعد صبية في مقتبل العمر، وأنها كانت الأولى على دفعتها في كلية الطب بجامعة الملك عبدالعزيز، كما حصلت على لقب الطالبة المثالية في الجامعة. أصيبت نور بالمرض في أمريكا وهي حامل، فنصحها الأطباء بإنهاء حملها حتى لا تضيف إلى أعباء المرض أعباء الحمل والولادة، بيد أنها أصرت على استمرار حملها إلى أن وضعت طفلتها مريم. ثم توفاها الله إلى رحمته.

تقول نور في تمهيدها لكتابها: «في هذا الكتاب أشاطر قارئي جزءاً من روحي خلال تجربة فريدة. تجربة إصابتي بالسرطان وأنا حامل.. حيث يصبح الموت قريباً جداً والخيارات شائكة.. وحيث يصبح الإيمان بخالق عظيم مدبر وقادر هو طوق النجاة.. وضعته في مقالات قصيرة وبأسلوب قصصي سلس لتكون قراءته ميسرة لأي أحد.. أرجو أن يجعله الله بلسماً ونوراً لكل قلب متألم يمر بمحنة أياً كانت.. ومن منا لم يمر قط بمحنة».

أخذت تناجي ربها فتقول «أردت أن أكتب إليك قبل كل شيء.. لأقول لك

(ياربي).. لا أدري حقاً كيف أشكرك.. ما أعظم هذه النعمة التي أوقفتني عن الركض الأعمى. إنك أخذتني من وسط كل الضوضاء.. والركض.. الأنفاس المتسارعة.. لأقف في سكون بين يديك.. وأنعم بقربك.. وتغمرني برحمتك.. وأستعيد

لذة مجالستك. وحشتني يارب. حقاً وحشتني. كم من زمن مرَّ دون علاقة حقيقية وإن كنت أصلي لك خمس مرات. كم من زمن مر. والصور والناس والأحداث توقف كل محاولة مني للقرب منك. فلا أجد نفسي إلا أغوص أكثر وأكثر في وحل الغفلة. فقد كل شيء طعمه بدونك. وصارت كل الألوان باهتة. فيا لفرحتي بهذا المرض الذي أعطاني الفرصة لأقف وأترك كل شيء خلفي، وأجلس إليك كما كنت قبل سنين. حقاً اشتقت إليك».

بمثل هذه الروح قابلت نور خبر إصابتها بالسرطان. وعلها تأست بقصة الزميلة الدكتورة سامية العامودي التي أصيبت هي الأخرى بسرطان الثدي ـ نسأل الله أن يمن عليها بالصحة والعافية ـ فأذاعت الخبر بين أفراد أسرتها، ثم عبر وسائل الإعلام على مستوى العالم، لتقول للسيدات.. جميع السيدات.. رجاء لا تهملن الفحص الدوري للثدي. فالتشخيص المبكر للمرض كفيل بعلاجه مبكراً، والوقاية من مضاعفاته..

• عكاظ، ٤ يوليو ٢٠١٥م، العدد: ٥١٣٠

ووصلت مريم

وأخيراً وصلت مريم.. وضعت د. نور حملها وجاءت صغيرتها مريم. ثم جاءها الفرج الأكبر فتوفيت إلى رحمة الله وهي في حدود الثالثة والثلاثين من عمرها بسرطان الثدي بعد أن تركت وراءها ذكرياتها ومشاعرها وأحاسيسها في كتاب أصدرته باسم «رحلة البحث عن معنى».

نُصحت نور بأن تذهب مع زوجها إلى منتجع مجاني لمرضى السرطان، وعن ذلك تقول: «كل التكاليف من سكن وأنشطة بالمجان لمرضى السرطان. وصلنا ففوجئنا بمتطوعين ينظمون وقوف الزوار الكثر بالمواقف ويستقبلون الجميع بابتسامات عريضة. وغرفتنا المجانية كانت جناحاً كاملاً مطلاً على الجبل الأخضر. كل هذه الرفاهية توفر لمئات المرضى الذين حضروا هذا التجمع من تبرعات المتبرعين». هذه دعوة لأصحاب الخير في بلادنا لينحوا مثل هذا المنحى ويزيدوا عليه!.

تستطرد نور فتقول: «وصلت مريم ولكن بقي في القلب بعد وصولها غصة.. إذ أشعر بالتقصير في حقها لأني لا أقدر على إرضاعها. فلم أرضعها إلا أسبوعين عدت بعدهما للكيماوي فتوقفت عن الرضاعة. الرضاعة الطبيعية ليست مجرد مصدر غذاء صحي ومناعة وأجسام مضادة.. بل هي علاقة وارتباط وتواصل لا يوصف بين الأم ورضيعها». وهذه دعوة للأمهات أن لا يهملن الإرضاع الطبيعي لأطفالهن.

وتتحدث نور عن إنسان مميز قابلته أثناء مرضها.. ذلك هو طبيب الأورام الذي تولى علاجها.

«قررت أن أكتب عن أحد الأشخاص الرائعين الذين أسعدني المرض بالتعرف إليهم.. عن طبيب الأورام الذي تولى علاجي. شخصية رائعة.. أتمنى لو استنسخ منه مئات النسخ أوزعها على مستشفيات بلادنا ليسعد به مرضانا كما سعدت به.. ولعل الكتابة عنه تكون وسيلتي لهذا الاستنساخ.. ليعلم زملائي في الطب كيف يمكن أن يكون الطبيب إنساناً. في كل مرة يقابلني لديه شيء جميل يقوله.. تبدين بشكل ممتاز.. أنت معجزة لا تؤثر فيك الأعراض الجانبية للكيماوي أبداً.. ما أخف حركتك رغم أنه لم يمر على عمليتك سوى أيام.. أنا مندهش من سرعة التئام الجرح لديك.. الجميع

يخبرونني أنك تبدين رائعة ولا أحد يتخيل أنك على الكيماوي».

لقد سبق أن قالها ابن سينا من قبل.. الوهم نصف الداء والاطمئنان نصف الدواء.

ولنتأمل هذا الموقف الإنساني الرائع. عندما بدأ شعرها يتساقط إثر العلاج بالكيماوي. سارع زوجها فدخل الحمام وخرج منه وقد حلق شعر رأسه (زلبطه). تبعته هي الأخرى فحلقت ما تبقى من شعر رأسها. تقول الدكتورة «وأخذنا نضحك ونتبادل النكات وابننا يضحك معنا ويقول.. ماما.. بابا.. ماذا فعلتما؟ سألناه: هل تريد أن تحلق رأسك مثلنا؟ فقال: لا شكراً. من يومها لم أحتج لإخفاء رأسي أمام أسرتي. ولم أحتج لارتداء الشعر المستعار أو البندانة واستطعت التمسك بكبريائي وقوتي وإن كان رأسي حليقاً..

الفهرس

الفهرس

تقديم د. وليد فتيحي (نور).. لأهل البصائر ٤
تمهيد ٧
من تمام الصحة.. إلى السرطان ٩
قنابل من الأخبار ١٢
يومان من القلق ١٥
الحكمة ١٧
قبل يوم من العملية ١٩
ليلة العيد ٢٠
المتهم الأول.. العين ٢٢
نعمة استئصال الثدي ٢٤
درس ثقيل في التوكل ٢٦
عزيزي الرجل الشرقي ٢٨
كيف أشكرك يا الله؟! ٣٠
كلام الناس ٣٢
نحن وأولادنا ٣٤
القرار الأصعب ٣٦
سحر الامتنان ٣٨
رؤية جديدة للكيماوي ٣٩
رسائل ربانية ٤١
منتجع الجبل والخدمات المميزة ٤٤
لماذا.. وأنا حامل ٤٦
ماذا لو كان مرضي نفسياً؟ ٤٧
كيف تأكل فيموت السرطان جوعاً؟!! ٤٨
ربيعي وربيعها ٥٠
الافتراضات المزعجة ٥١
ووصلت مريم ٥٢
في المستشفى.. قل خيراً أو اصمت!! ٥٣
إنسان مميز.. وطبيب إنسان ٥٦
هل أنت مريض؟ ٦٠
أنا والموت ٦٢
في العالم المجنون ٦٤
تساقط الشعر ٦٦
ليس الله حكراً على أحد ٦٩
طريقة أكل الفيل ٧١
مقايضة المصائب ٧٢
الآلة المنتجة ٧٤
البادجر وأمهات اليوم ٧٦
العلم المسكين ٧٨
شريح القاضي ٧٩
آخر أيام الإشعاع ٨١
العيش بنصف جسد ٨٣
ما أتعس من يهرب من نفسه ٨٥
بعد انتهاء العلاج ٨٧
سنكون جميعاً بخير ٨٨
والداك كبيران ٨٩
مع ابني في المصعد ٩١
كم تتغير؟ ٩٢
كيف نتحمل الألم؟ ٩٤
من ضيق الجسد إلى انطلاق الروح ٩٥
الدعاء مستجاب ولو بعد حين ٩٧
لاتتوقف عن الدعاء مهما حدث ٩٨
عدت للعمل بعد انتشار المرض في كل جسمي ٩٩
جسدي وروحي ١٠٠
كم سعدت بحبّكم ودعواتكم ١٠١
خاطرة ١٠٢
المرض وتعزيز الحياة الإيجابية ١٠٥
قصيدة الدكتور شهاب غانم ١٠٩
مقالات الأستاذ الدكتور زهير السباعي ١١١
الفهرس ١١٧

المؤلفة د. نور محمد البار

- طبيبة وأكاديمية بجامعة الملك عبد العزيز ـ الطب النفسي.
- تخرجت من كلية الطب جامعة الملك عبدالعزيز عام ٢٠٠٨م.
- التحقت بالزمالة الأمريكية للطب النفسي بجامعة تفتس عام ٢٠١٢م.
- حاصلة على رخصة بالتنويم المغناطيسي من جمعية نيو اينجلاند للتنويم المغناطيسي الإكلينيكي.
- كاتبة لعدد من المقالات الاجتماعية التي نشرت في صحف ومجلات عربية.
- صاحبة مدونة الكترونية ذات رواج www.dr-nooralbar.blogspot.com
- أسست نادي تربوي وتنموي للفتيات والمراهقات باسم Steps والذي استمر لخمسة سنوات.
- أصيبت بسرطان الثدي عام ٢٠١٣م بينما كانت حاملاً لطفلتها مريم، ثم انتشر المرض في ٢٠١٤م للكبد والعظام.
- زوجة وأم لطفلين أحمد ومريم.

تم بحمد الله

جميع حقوق الطبع محفوظة